أحمد بن قاسم الحجري [ت بعد ١٠٥١هـ/١٦٤١م] ورحلته مصدراً للأوضاع العلميَّة للموريسكيين

دكتور

هدى بنت جبير السفياني

أستاذ مساعد – قسم التاريخ

جامعة أم القرى

الملخص

هذا البحث يتحدَّث عن الحياة العلميَّة للموريسكيين من خلال رحلة أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي) (ت بعد ١٠٥١هـ/١٦٤١م) .

وتلقي هذه الدراسة الضَّوء على هذه الرِّحلة باعتبارها مصدراً مهمًّا لا يُستهان به لهذه الفئة، لا سيَّما ومؤلِّفها كان أحد أبناء الموريسكيين الذي عاصر حياة هذه الفئة بجميع جوانبها.

وتتبَّعَ البحث من خلال هذه الرحلة أكثر جوانب الحياة العلميَّة وتفاصيلها للخروج بصورة واضحة عن النَّاحية العلميَّة والثقافيَّة لهم. مع التحليل والمقارنة مع المصادر الأخرى التي تحدَّثت عن هؤلاء الموريسكيين سواءً المعاصرة للحجري أو بعده. وقد أعطت هذه الرحلة تصوُّراً مهما عن حياة هؤلاء الموريسكيين، كما أنَّها وقفت على الجانب الثقافي والعلمي وصوَّرته عن كثب من خلال صاحب الرِّحلة نفسه، والذي كان يحمل ثقافةً عالية لعدَّة علوم، كما أنَّها أوضحت مدى تفاعل الموريسكيين وتأقلمهم مع مجتمعهم سواء داخل الأندلس أو خارجها.

الكلمات المفتاحية : الحجري _الأوضاع العلمية_ الموريسكيين _ الرحلة _ المصدر .

دكتور
هدى السفياني
قسم التاريخ، جامعة أم القرى
المملكة العربية السعودية
hjsufyani@uqu.edu.sa

Abstract:

This research handles the scientific life of the Moriscos through the journey of Ahmad ibn Qasim al-Hajari (Afukai) who died after 1051 AH / 1641 A.D.

This research shed light on this particular journey because it is an important source for this dynasty, especially since the author was one of the sons of the Moriscos, who lived the life of this group in all its aspects

The research traced through this journey all aspects of scientific life and its details to abstract clearly the scientific and cultural image of them, as well as analyzing and comparing with other sources that talked about these Moriscos, whether contemporary to Al-Hajari or after him

This journey gave an important insight into the lives of the Moriscos. This journey also showed the cultural and scientific aspect through the traveler himself, who was carrying a high culture, including several sciences. The journey also illustrated the extent to which the Moriscos interacted and adapted to their community both inside and outside Andalusia

Keywords : Al-Hajari - THe scientific life- the Moriscos - the journey - Source

Huda AL-Sufyani

Department of History, Umm Al-Qura University , KSA.

hjsufyani@uqu.edu.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

في هذه الورقات نتناول جانباً مهماً ألا وهو الحياة العلمية لفئة مسلمة شحَّت المصادر بالحديث عنها وعن تاريخها، وهي فئة الموريسكيين الذين كانوا عبارة عن مسلمي الأندلس المنصرين عن دينهم الإسلام قسراً، وإلا فهم في قرارة أنفسهم ظلُّوا يمارسون شعائر الدين الإسلامي الحنيف ويطبِّقونه في جوانب حياتهم المختلفة، ولأنَّ السلطات النصرانيَّة حاربت وقمعت كل ما يمت لأصلهم ودينهم من صلة فقد بقيت هذه الحقبة التاريخية لهؤلاء الموريسكيين غامضة نوعاً ما، ولم تتناولها المصادر العربية إلا بمعلومات ضئيلة، وكل ما ذكر عنهم كان مطولاً في المصادر النصرانية التي درست حياتهم وتاريخهم بشيء من الإسهاب، باعتبارهم مصدر إقلاق وخوف لأمن النصارى ودينهم.

ومن هنا كانت رحلة الحجري[1] والتي تناولنا من خلالها حياة هؤلاء الموريسكيين العلمية بكل تفاصيلها مصدراً مهماً لا يستهان به لهذه الفئة المضطهدة، لا سيما والحجري نفسه أحد أبناء هذه الفئة، وممن عاصر أوج الأحداث التاريخية لهم، ودوَّنها لنا في رحلته هذه عند الحديث عن سيرته وتنقُّلاته ومشاهداته كلها، وهو بذا أعطى صورة لا بأس بها عن الحركة

(١) اعتمدنا في هذه الصفحات على الطبعة التي حققها د.حسام الدين شاشية، ط١، دار السويدي للنشر، أبوظبي، ٢٠١٥م، وما كان من زيادات في النسخ الأخرى نقلنا منه وأشرنا إليه في الهامش.

الفكرية للموريسكيين، وما هي مناهجهم ومؤلفاتهم، وأماكن تعليمهم، بالإضافة إلى أبرز علمائهم، والتي تألَّفت وكوَّنت لنا موضوع هذا البحث، بعنوان: [أحمد بن قاسم الحجري (ت بعد ١٠٥١هـ/١٦٤١م) ورحلته مصدراً للأوضاع العلميَّة للموريسكيين، **(ت بعد ١٠٥١هـ /١٦٤١م)**]، وبدأناه بمقدِّمة عن أهميَّة الموضوع وأسباب اختياره وخطَّته، ثُمَّ كانت محاوره كالتالي:

- أولاً: ترجمة الحجري ورحلته:

١ - ترجمة الحجري وعصره.

٢ - سبب تأليفه لرحلته.

٣ - وصف الرحلة.

٤ - خط سير الرحلة.

٥ - أهمية رحلة الحجري.

٦ - تحقيقات الرحلة.

- ثانياً: الحياة العلمية للموريسكيين من خلال رحلة الحجري:

١ - دور السلطات النصرانية في تقليص الحركة العلمية لدى الموريسكيين.

٢ - أماكن التعليم ووسائله لدى الموريسكيين.

٣ - هجرة الموريسكيين ودورها.

٤ - ثقافة الموريسكيين وإنتاجهم.

- الخاتمة وبها أهم النتائج.

أولاً: ترجمة الحجري ورحلته

١ - ترجمة[١] الحجري وعصره:

هو أحمد بن قاسم بن الفقيه بن الشيخ الحجري الأندلسي، وقد لقِّب بشهاب الدين وبأفوقاي، وهو تحريف عجمي لـ: أبوالقاسم، لأنَّ الأندلسيين يكنونه بأبي القاسم، وهو اسم أسرة أندلسية ما زالت بقاياها موجودة بتطوان، ويعرف أبناؤها بأولاد الفقاي، وقد أخذ الاسم صيغة بربرية بعد ذلك فقيل أفقاي وأفوقاي[٢].

ويرى أحد الباحثين أنَّ أفوقاي هو اللقب الذي عرف به بين الموريسكيين، وهو تحريف لكلمة أبوكادو، (Abocado) التي تعني باللغة الإسبانية المحامي، وهي المهنة التي زاولها بعد ذلك[٣].

أما اسمه النصراني الذي أطلق عليه قبل الطرد فهو (بيخيرانو)

---

(١) للمزيد من ترجمته، انظر: الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: شورد كوننكز، قاسم السامرائي، خيرارد فيخرز، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، ١٩٩٧م، في أماكن متفرقة من الكتاب؛ الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: حسام الدين شاشية، دار السويدي للنشر، أبوظبي، ط١، ٢٠١٥م، ١٥-٢٤؛ محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧، ط٣، مطبعة أفريقيا الشرق، ١٩٩٨م، ٢٧٨-٢٧٩؛ محمد رزوق: الأنا والآخر في رحلة الشهاب الحجري، ضمن أعمال ندوة الرحالة العرب والمسلمون، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م، ٤٧-٥١؛ محمد المنوني: ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مجلة دعوة الحق، ع٣، السنة العاشرة، ١٣٨٦هـ، ١٩-٢٣؛ رشا الخطيب: أحمد بن قاسم الحجري المترجم والرحالة والسفير، ط١، دار السويدي، ٢٠١٧م.

(٢) الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، ١٥؛ الفاسي: الرحالة المغاربة، ٢١-٢٢.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ١٥.

(bejerano)[١] وهو الاسم الموريسكي الذي عرف به في إسبانيا، إذ وقَّع رسالة[٢] له بالإسبانيَّة ووجَّهها وهو في باريس إلى الموريسكيين في القسطنطينية سنة (١٠٢١هـ/١٦١٢م)، (Ahmed Bencacim Bejarano Andaluze)[٣].

ولد الحجري سنة (٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، اعتماداً على قوله في رحلته أنه بلغ أربعاً وسبعين سنة حين دوَّنها، وكان ذلك في العشرين من رجب سنة (١٠٥١هـ/١٦٤١م)، ومعنى ذلك أنَّ الحجري عاش في عصر شهدت أحداثه أوج المحنة على مسلمي الأندلس، وهو الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، والتي توالت فيه قوانين[٤] تقضي بطرد الموريسكيين خارج إسبانيا، وقد سبقه عدة ثورات[٥] من مسلمي الأندلس ضد

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر نص الرسالة، ملحق رقم (١).

(٣) الحجري: ناصر الدين، ١٥.

(٤) برزت فكرة طرد المسلمين من الأندلس لأول مرة سنة (٩٩٠هـ/١٥٨٢م)، في اجتماع عقده الملك فيليب الثاني مع أعوانه ومستشاريه في مدينة لشبونة، بل وضع مشروع النفي بالفعل وتأجل تنفيذه بسبب مشاكل السياسة الخارجية، ثم تولى فيليب الثالث الذي صدر في عهده قرار الطرد سنة (١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، وصدَّق عليه الملك في اجتماع مغلق، ثم أعلن المرسوم في نفس العام، وبدأ تطبيقه في مدينة بلنسية، ثم توالت مراسيم الطرد لتشمل كافة إسبانيا. محمد عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، ٤٠٠-٤٠١؛ عبدالله جمال الدين: طرد المسلمين من الأندلس، ضمن ندوة: الأندلس قرون من التقلبات، مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٧هـ، ١٢٢/٢-١٢٤.

(٥) قامت عدة ثورات للموريسكيين منها ثورة المرية وثورة حي البيازين وثورة البشرات الأولى سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م، وثورة البشرات الثانية سنة (٩٧٦هـ/١٥٦٨م). عنان: نهاية الأندلس، ٣٥٨-٣٧٦.

الحكومة النصرانية التي سيطر على مقاليدها رجال الدين الكاثوليك المتعصبين ضد الإسلام وأهله، ففرضوا عدة قوانين جائرة بحق المسلمين وهويتهم الدينية، الأمر الذي تسبب في إشعال الثورات بين صفوفهم مطالبين بما وعدهم به النصارى عشية سقوط غرناطة سنة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م)، من بنود[١] تضمن توفير الحياة الهادئة الآمنة المستقرَّة، وبأن يعيش الجميع في مودَّة وسلام[٢].

وقد قوبلت هذه الثورات بكلِّ عنف وقسوة، كان من أهمها ثورة غرناطة التي بدأت سنة (٩٧٦هـ /١٥٦٨م)، والتي عُرفت في المصادر بثورة البشرات الثانية، (Alpujarras)، نسبة إلى المرتفعات التي شملتها هذه الثورة، واستمرت مشتعلة مدة عامين أي إلى سنة (٩٧٨هـ /١٥٧٠م)، ودخل فيها كثير من رجال السهل والجبل مما أدَّى إلى انتشارها وقوَّتها، الأمر الذي تسبب في ردَّة فعل عنيفة جداً من الجانب النصراني، تبلورت في التفكير الجدي لطرد هؤلاء المسلمين من ديارهم، وتشتيتهم في أرجاء البلاد، وقد تقرَّر ذلك بالفعل سنة (٩٧٨هـ /١٥٧٠م)، حيث تمَّ تجميع الموريسكيين من كل قرى مملكة غرناطة، وتم حشدهم في سفينة ضخمة بهدف نفيهم إلى مناطق أخرى في الشمال والغرب داخل أسبانيا نفسها، فامتلأت المناطق الجديدة لهؤلاء المواطنين الذين واصلوا حياتهم بنفس أسلوبهم محافظين ما استطاعوا على لغتهم برغم قوانين الحظر، حتى كان النفي الأخير الذي حُمل فيه الموريسكيون على مغادرة أسبانيا، وطُردوا قسراً منها، وكان ذلك بعد كل الإجراءات الرامية إلى إذابة المسلمين في المجتمع النصراني، فصدر قرار

(١) تضمَّنت بنود تسليم غرناطة أكثر من خمسين بنداً كانت في مجملها تضمن الحرية الدينية والدنيوية للمسلمين. انظر: عنان: نهاية الأندلس، ٣٦٠؛ ماريا روزا مينو كال: إسلام الحضارة والثقافة، ط١، دار توبقا، ٢٠٠٦م، ٢٢.

(٢) عنان: نهاية الأندلس، ٣٦٠.

الطرد النهائي الشهير سنة (٩٩٠هـ/١٥٨٢م)[١]، وذلك في عهد الملك الإسباني فيليب الثاني (Felip II)[٢]، ولكن هذا المشروع تأجل تنفيذه بسبب مشاكل السياسة الخارجية، حتى سنة (١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، حيث أعلن المرسوم النهائي لطرد المسلمين من إسبانيا كلها، واستمر هذا المرسوم عدة سنوات حتى هُجِّر كثيرٌ من المسلمين من مختلف المدن الأندلسية[٣].

وفي هذه الأجواء العاصفة نشأ وترعرع أبوالقاسم الحجري الذي كان على ما يظهر يقطن الأندلس مع تلك البقية الباقية من المسلمين الذين تأخروا بها إلى أيام محاكم التفتيش، وأُكرهوا على النصرانية[٤].

أمَّا عن مسقط رأسه فقد اختلف في تحديده، ففي حين ذكر الحجري نفسه أنه ينحدر من جهة الحجر الأحمر، وهي القرية التي لم يتمكن المؤرخون من تحديدها على وجه الدقة، فيقول البعض: أن نسبته الحجري تؤكد علاقته بقرية أحجر الواقعة حوز غرناطة وهي التي يُعتقد أنها محرفة عن قرية الحجر، في حين يرى البعض الآخر كمرسيدس غارتيا أرينال أنَّه ينحدر من قرية أورناتشوس، بينما يرى إسماعيل العثماني أنه ينحدر من تييرادي باروس (Tierra de Barros)، التابعة لمقاطعة أكستريما دورا، والغير بعيدة عن أورناتشوس[٥].

---

(١) عنان: نهاية الأندلس، ٣٦٠ وما بعدها؛ جمال الدين: طرد المسلمين من الأندلس، ١١٦/٢-١٢٢.

(٢) فيليب الثاني: ملك إسبانيا وملك نابولي وصقلية، وهو ابن شارل الخامس (ت١٠٠٧هـ/١٥٩٨م)، الموسوعة العربية العالمية، ٧١٨/١٧.

(٣) عنان: نهاية الأندلس، ٤٠٠-٤٠١؛ جمال الدين: طرد المسلمين من الأندلس، ١٢٢/٢-١٢٤.

(٤) الحجري: ناصر الدين، ٤٥؛ محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، ٢١-٢٢؛ محمد المنوني: ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، ٧٨.

(٥) الحجري: ناصر الدين، ١٦.

وكل هذا لا يتعارض مع ما صرَّح به الحجري من أنه كان يسكن إشبيلية –قبل هجرته إلى المغرب–، لأنها كانت من بين المدن التي صار إليها بقايا الأندلسيين بإسبانيا بعد ما طردوا عن السكنى في غرناطة ونواحيها(١).

أمَّا عن تعليمه وكيفية ذلك، فقد ذكر أنه تعلَّم العجميَّة وظل في تعلُّمها الخمس سنوات، وبعد بلوغه سن العاشرة دفعه شغفه في العلم والتحصيل إلى محاولة تعلُّم اللغة العربية، وقد كانت الفرصة مواتية له عندما أتى ابن عمٍّ لوالده إلى دارهم، وكان متقناً للعربية، وعن طريقه حقَّق رغبته هذه، واستطاع أن يتقن العربية قراءة وكتابة في فترة قصيرة، رغم كل الصعاب والسرية التامة في تعلُّمها حتى عن والديه(٢)، إذ يقول: «وكان والديَّ يخافان عليَّ أن يُعرف مني بأن كنت أقرأ بالعربية بسبب الأحكام القوية التي كانت تحكم النصارى على من يعرفوا أنه مشغول بكتب المسلمين»(٣).

وإضافة إلى ذلك فقد كان متقناً للبرتغالية، ويفهم الفرنسية والإيطالية ولا يتكلَّم بها(٤).

ولا بدَّ أن الحجري بعد إتقانه للعربية قد قرأ القرآن وحفظ شيئاً منه ؛ لأننا نلاحظ استشهاده وسرعة جوابه بالآيات الكريمة في كثيرٍ من مناظراته التي خاضها في بلدان متفرقة مع طوائف شتى، أو استشهاده بالكتاب العزيز في تدوين رحلته أيضاً(٥).

كما يتَّضح لنا مدى ثقافته الواسعة واطلاعه على كتب الحديث الشريف، والأديان، وكتب البلدان والجغرافيا، إضافة إلى الطب والفلك وغيرها من المؤلفات

(١) الفاسي: الرحالة المغاربة، ٢١–٢٢؛ المنوني: ظاهرة تعريبية، ٧٨.
(٢) الحجري: ناصر الدين، ١٣٦.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) نفس المصدر، ١٢١.
(٥) انظر على سبيل المثال: ص٥٨، ص٨٦، ص٨٨، ص٩٠، ٩٥، ١٠٤ وغيرها.

التي كان يستشهد بها أو يستعين بها في وظيفته كمترجم[١].

وبعد أن قضى سني طفولته في قريته الحجر الأحمر اتجه إلى غرناطة، وكان ذلك سنة (١٠٠٤هـ/١٥٨٨م) تقريباً، أي عندما كان يبلغ من العمر تسع عشرة سنة، فقرأ على الشيخ الفقيه الأكيحل الأندلسي[٢] شيخ الترجمة بالإجازة[٣].[٤]

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ص٨١، ص٨٥، ص٩٣، ص٩٧، ص١٠٨، ص١١٣، ص١١٥، ص١١٨، ص١٢٣، ص١٤٠ وغيرها.

(٢) الأكيحل الأندلسي –أو ألونسو دي كاستيو (Alonso de Castiuo)، من أشهر الشخصيَّات الموريسكية، وفي قائمة مترجمي القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، وقدم خدمة كبيرة خلال تمرُّد غرناطة، إذ كان يترجم ما يُغنم من أخبار العدو، ويعرف بالترجمان الموريسكي الغرناطي. انظر لمعلومات مفصلة عنه: هورتزوبنثت: تاريخ مسلمي الأندلس المويسكيون، حياة ومأساة أقلية، ط١، ترجمة: عبدالعال طه، دار الإشراق، ١٩٨٨م، ١٥٤؛ ليونارد هارفي: تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ضمن الحضارة العربية في الأندلس، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م، ٣٤٩/١؛ محمد العسري: الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ٢٠٠٣م، ٢٣٠.

(٣) الإجازة: مأخوذة من جواز الماء الذي تسقاه الماشية والحرث، يقال: استجزته فأجازني، إذا أسقاك ماءً لماشيتك وأرضك، كذا طلب العلم، يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه إيَّاه، فالطالب مستجيز والعالم مجيز، وأجاز له: سوَّغ له، واستجاز: طالب الإجازة أي الإذن، أما المعنى الاصطلاحي للإجازة فهو: إباحة المجيز للمجاز له، ورواية ما يصح عنده أنه حديثه، وهي أحد طرق نقل الحديث وتحمله، وأركانه الأربعة: المجيز والمجاز له والمادة المجازة، ولفظ الإجازة، وهي إما مشافهة أو كتابة. ابن فارس: أحمد الرازي (ت ٣٥٩هـ/١٠٠٤م): معجم مقاييس اللغة، ط١، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م، ٤٩٤/١؛ الخطيب البغدادي: أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م): الكفاية في علم الرواية، دار المعارف العثمانية، الهند، ١٣٥٧هـ، ٣١٢-٣٢٥.

(٤) الحجري: ناصر الدين، ٥١-٥٢.

وفي هذه الأثناء بدا اسم الحجري يلمع حين هدم كبير القساوسة بغرناطة إحدى مآذن مسجدها القديم عام (١٠٠٤هـ/١٥٨٨م)، فعثر فيها على صندوق معدني يحتوي على مجموعة من المخطوطات تحوي عدة لغات، وهي العربية غير المنقطة والقشتالية واللاتينية، وعرفت هذه المخطوطات باسم (الكتب الرصاصية)، وقد عجز مترجمو القسيس الأعظم[١] عن ترجمة بعض ما جاء فيها، فاستُدعي الحجري الذي قام بترجمتها ونجح في فك كثير من ألغازها، الأمر الذي جعله يحظى عند القسيس الأعظم ويصبح مترجماً له، كما أنه حصل على مكافئة قدرها ثلاثمائة ريال، ومنحه رخصة بالترجمة من العربية إلى العجمية وبالعكس[٢].

وإلى جانب اشتغاله بالترجمة في غرناطة يبدو أنه كان يطبب الناس بالرقية دون أن يخبرهم بأنه يستعمل القرآن الكريم في ذلك[٣].

وقد نجح الحجري بأعجوبة أن يهاجر إلى بلاد المغرب فراراً بدينه، وكان ذلك في سنة (١٠٠٧هـ/١٥٩٨م) تقريباً، وعمره آنذاك تسع وعشرون سنة، وكان سفره من مرسى (شنتمرية) على متن سفينة متجهة إلى مدينة البريجية (مدينة الجديدة الحالية بالمغرب) ومن هذه المدينة فرَّ إلى داخل المغرب

---

(١) أطلق الحجري على القسيس الأعظم اسم بدرو دي كاسترو (Pedro de Castro) رئيس أساقفة غرناطة الذي تولى هذه المهمة من سنة ١٥٨٩ إلى سنة ١٦١٠م، ولعب دوراً هاماً في ترجمة النصوص الرصاصية التي عثر عليها في غرناطة. الحجري: ناصر الدين، ص٤٨، هامش (١).

(٢) الحجري: ناصر الدين، ٥١-٥٢؛ عبدالرزاق: قراءة في كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، ٧٨.

(٣) الحجري: ناصر الدين، مقدمة المحقق، ص١٦.

الأقصى، فدخل مدينة آزمور (Azemmour)[١] واتصل بقائدها الذي كتب للمنصور[٢] حضوره لعيد الأضحى الذي كان قريباً، وهكذا سار في صحبة قائد آزمور حتى وصلوا إلى محلة سلطان المغرب في سنة يؤرخها الحجري بأنها سنة وباء، وقد كان هذا الوباء سنة (١٠٠٧هـ/١٥٩٧م)، ومن هنا نعلم تاريخ اتصاله بالمنصور وسنة هجرته للمغرب[٣].

أمَّا عن حياته في المغرب فيستفاد من بعض كلامه أنَّه استوطن مدينة مراكش بعد أن تزوج بها ابنة البرطال[٤]، رئيس الطائفة الأندلسية هناك، وأنجب منها ولدين وبنتين، وقد امتدت إقامته بمراكش من أواخر سنة (١٠٠٧هـ/١٥٩٧م) حتى سنة (١٠٤٦هـ/١٦٣٦م)، وهو يذكر في اعتزاز أنه كان ترجماناً لدى السلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي[٥] سنين عديدة، وكان أيضاً كاتبه باللسان العجمي

---

(١) آزمور: مدينة مغربية تقع على ضفة نهر أم الربيع. الحميري: محمد بن عبدالمنعم (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م): الروض المعطار في خير الأقطار، ص٢١، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥؛ مسعود الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد النهضة، بيروت، ١٧٤/٢.

(٢) المنصور الذهبي: أحمد بن محمد الشيخ المهدي بن القائم بأمر الله عبدالله آل زيدان السعدي (ت١٠١٢هـ /١٦٠٣م)، رابع سلاطين الدولة السعدية، كان حازماً في ملكه وسياسته. الناصري: أبوالعباس المغربي (ت١٣١٥هـ/١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط١، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، الدار البيضاء، ١٩٥٥م، ١٨٦/٥-١٨٧.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ٧٧.

(٤) يعتبر البرطال من بين أشهر قادة ثوار البشرات، يقول عنه مارمول بأنه كان محسوباً من قبل محكمة التفتيش قبل الثورة، التي حكمت عليه بعدم الخروج من مدينة غرناطة، لكنه طلب إذناً للذهاب للبشرات، والتحق بالثوار، ويبدو إنه على إثر فشل الثورة خرج بعائلته إلى المغرب. الحجري: ناصر الدين، مقدمة المحقق، ص١٨.

(٥) زيدان بن أحمد: أبوالمعالي بن السلطان المنصور (ت ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م)، تولى بعد والده. الناصري: الاستقصاء، ١٣/٦.

الإسباني، ثم قام بالترجمة لولديه[١] من بعده[٢].

والحجري يتحدَّث عن سفارة قام بها إلى فرنسا، وقد كلَّفه بها مولاي زيدان لأجل المرافعة عن الموريسكيين الذين نهبهم ربابنة السفن الفرنسية، فزار خلالها باريس، وبوردو (Bordeaux)، ولوهافر (Lo Hover)[٣]، وبعد قضاء مهمَّته في فرنسا أبحر إلى هولندا ودخل امستردام (Amsterdam)، ولايدن (Leiden)[٤]، ثم ذهب إلى لاهاي (La Haye)[٥]، واتصل بأميرها، فطلب منه هذا الأمير أن يفصِّل له الكلام على طرد الأسبان للمسلمين من الأندلس، فأجابه لطلبه، وفي كل من فرنسا وهولندا جرت له مناقشات دينية مع القسيسين والرهبان، وأحبار اليهود، وهو في الرد على هؤلاء جميعاً يحتجُّ عليهم بالإنجيل والتوراة، وقد درس ترجمتيهما في أوروبا لهذه الغاية، واستعملها في مناظراته التي يذكر أنه وُفِّق فيها مراراً عديدةً[٦].

---

(١) لا شك أنه يقصد بهما: أبا مروان عبدالملك بن زيدان، وأخاه الوليد بن زيدان، وقد كانت مبايعة عبدالملك سنة (١٠٣٧هـ/١٦٢٧م)، ووفاته سنة (١٠٤٠هـ/١٦٣٠م)، ثم بويع للوليد في نفس التاريخ، وتوفي سنة (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م). المنوني: ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، ص٧٩.

(٢) الحجري: ناصر الدين، ص١٥٥.

(٣) لوهافر: مدينة تقع في النورماندي، شمال غرب فرنسا، وتطل على القناة الإنجليزية بالقرب من السين. الموسوعة العربية العالمية، ٥٨٣/٢٥.

(٤) لايدن: مدينة تقع على بعد ٣٥كلم جنوب غرب أمستردام عاصمة هولندا. الموسوعة العربية العالمية، ٦٠/٢١.

(٥) لاهاي: قاعدة مقاطعة هولندا الجنوبية، تبعد عن أمستردام ٥٥كلم، وهي مقر الحكومة الإداري. الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، ٢٢٧/٢٠.

(٦) الحجري: ناصر الدين، ٧٨-٧٩-٨٣-٩٩-١١٣-١١٤-١٢٢-١٢٣؛ محمد المنوني: قبس من عطاء المخطوط المغربي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩م، ١٠٢٨/٢؛ عبدالهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، ١٩٨٨م، ١٧٦/٨.

أما عن بقية حياته في المغرب فبالإضافة إلى اتصاله بملوك المغرب نجد أنه كانت له علاقة ببعض علمائه، حيث يذكر أنَّه أخذ عن عدد من فقهائه وعلمائه في شتى العلوم، وبعد إقامته الطويلة بالمغرب سافر عنه ميمماً وجهه صوب مكة لأداء فريضة الحج، وهو يذكر عن سفره هذا أنَّه جاء من مدينة مراكش إلى قصبة سلا[١]، ورباطها -على حدِّ تعبيره- وركب البحر هناك فحجَّ وزار قبر الرسول ﷺ[٢]، ولكنَّه بعد التحقيق تبيَّن أنَّ الحجري بعد خروجه من سلا لم يذهب للحج مباشرة بل استقرَّ مدَّة بمدينة تونس، حيث ترك عائلته أو التحق بها، وهذا يؤكِّد أنَّ خروج الحجري من المغرب سنة (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م) لم يكن بنيَّة الحجِّ فقط، بل إنَّه أحبَّ المقام في موطنٍ جديد وهو مدينة تونس[٣]، وهذا ما أكَّده في رسالته التي بعثها من باريس إلى الموريسكيين الموجودين في القسطنطينية بقوله: «في كل الأوقات وبأي حال من الأحوال وحتى اليوم، تونس هي أفضل مستقرٍّ للأمَّة»[٤].

أمَّا فيما يتعلَّق برحلته إلى الحجِ فقد توجَّه الحجري بداية إلى مكة ومنها إلى المدينة مارًّا في طريق عودته إلى مصر التي يبدو أنَّه استقرَّ بها لبعض الوقت، وممن اتصل به هناك عالمها الشيخ الأجهوري[٥]، الذي أشار عليه بوضع كتاب عن مناظراته مع النصارى واليهود ففعل، وقد فرغ من تأليفه

---

(١) سلا: مدينة مغربية عريقة على شاطئ البحر وميناء مهم. الإدريسي: أبوعبدالله محمد الحسيني (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ١٩/١؛ الخوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، ١٨٣/٢٠.

(٢) الحجري، ناصر الدين، ١٨٤، ملحق (٣).

(٣) نفس المصدر، ٢١، مقدمة المحقق.

(٤) نفسه، ١٥٧، ملحق (١).

(٥) الأجهوري: علي بن محمد بن عبدالرحمن أبوالإرشاد، نور الدين، فقيه مالكي، من العلماء بالحديث، مولده ومماته بمصر. خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ١٣/٥.

بمصر سنة (١٠٤٧هـ/١٦٣٧م)، كما أنَّه اشتغل أميناً بدكان محمد بن أبي العاص الأندلسي هناك[١].

ومن مصر انتقل الحجري إلى تونس، ثم تنقطع أخباره وهو بتونس، وتحديداً سنة (١٠٤٨هـ/١٦٣٨م)، وبعد هذا لا ندري هل بقي بتونس، أو انتقل عنها؟ وما هو تاريخ وفاته، ولا أين توفي؟[٢].

وقد جمع الحجري بين التأليف والترجمة، فبالإضافة إلى تأليف رحلته الشهيرة «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»، والتي اختصرها في كتاب أسماه «ناصر الدين على القوم الكافرين»، فقد كان من كبار المترجمين، وله جهود في نقل التراث الإسلامي في مختلف اللغات ؛ فبدءًا من بلاد الأندلس مسقط رأسه زاول الحجري مهمة الترجمة لا سيما الكتب الرصاصية[٣] التي وجدت في غرناطة سنة (١٠٠٤هـ/١٥٨٨م)، وبعد أن استطاع أن يهاجر إلى بلاد

(١) الحجري، ناصر الدين، ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٢.

(٣) الكتب الرصاصية: هي عبارة عن ألواح من الرصاص مكتوبة بثلاث لغات، هي: العربية غير المنقطة، والقشتالية، واللاتينية، وقد وجدت قرب برج الجامع الكبير في غرناطة أثناء هدم إحدى مآذنه، لأجل بناء كاتدرائية في نهاية القرن (١٠هـ/١٦م)، حيث عثر على صندوق به رفات قديسين، ورقعة جلد عليها خمسة صلبان موضوعة على شكل صليب، وكانت قطعة الجلد عليها كتابة باللغة العربية تبشر بقدوم محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي وسط ظلام يمتد من المشرق إلى المغرب، وتتنبأ بقدوم لوثر في القرن السادس عشر على شكل فارس، وتقول المخطوطة إنه بعد لوثر سيأتي يوم القيامة، ثم بعد ذلك بسنوات وعند التنقيب بجبل سكرومونتي بغرناطة بهدف البحث عن بعض الكنوز التي ظن الناس وجودها في بناية قديمة عثر على لوحة رصاصية مستطيلة مكتوب عليها بحروف مسمارية باللغة اللاتينية. انظر: الحجري، ناصر الدين، تحقيق السامرائي وآخرون، ٢٣-٣٥؛ ماناويلا مانثاناريس: المستعربون الإسبان في القرن التاسع عشر، ط١، ترجمة: جمال عبدالرحمن، القاهرة، ٢٠٠٣م، ٤٩-٥٠؛ عنان: نهاية الأندلس، ٥٠١.

المغرب، ثم تعيينه سكرتيراً وترجماناً للإسبانية في بلاط السلطان مولاي زيدان بعد أن برزت موهبته في إجادة اللغات والترجمة[١]، كما أنه ترجم كتاب «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»[٢]، ويشير أيضاً إلى تعريبه بمعيَّة أحد الرهبان الأسرى لكتاب باللغة اللاتينية حول جغرافية العالم والنجوم لمولاي زيدان[٣]، كما ترجم لفقيه أندلسي بسلا كتاباً من العربية إلى اللغة العجمية، موضوعه الرد على اليهود[٤].

وقد ساهم الحجري في تعليم علماء أوروبا اللغة العربية، وذلك من خلال رحلاته السفارية إلى بلدانهم[٥]، فتتلمذ على يديه عدد من المستشرقين العظام في نظر بلدانهم، كـ: هلبرت الفرنسي (Hilbert)، والمستعرب الهولندي توماس أربنيوس (Thomas Erpenius)[٦] أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن مستقبلاً، وقد ورد تدريسه لهلبرت في مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم (Arab ٤١١٩)، ومؤرخة في

(١) الحجري: ناصر الدين، ٢٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة، وانظر ملحق رقم (٣)، ص١٨٠.

(٣) هي كما يشير محمد رزوق الرسالة الزاكوطية لإبراهيم الزاكوتي، مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط، عدد ١٤٣٣، المصدر نفسه، ص٢٣، هامش (١).

(٤) نفسه، ص٢٢.

(٥) الحجري، ناصر الدين، تحقيق السامرائي وآخرون، ص٥٠.

(٦) توماس أربنيوس: هو مستشرق هولندي، ولد في جوركم بهولندا سنة (١٥٨٤م) ودرس في ليدن اللاهوت، أخذ يتنقل في عدة بلدان لأجل تعلم اللغة العربية حتى أتقنها وأصبح من كبار المستشرقين، وله عدة مؤلفات في ذلك، توفي سنة (١٦٢٤م). يوهان فوك: تاريخ الاستشراق، ط١، ترجمة: عمر لطفي، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٦م، ١٤٥؛ نجيب العقيقي: المستشرقون، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ٣٠٣/٢؛ عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م، ١٦-٢٠.

(٤/صفر/١٠٢١هـ/٦/نيسان/١٦١٢م)، وهي بعنوان: «قصيدة ابن مالك في أبنية الأفعال»، حيث قام الحجري بنسخ المخطوطة خصيصاً لهلبرت[١].

قام أيضاً الحجري وكما يظهر من خلال الرسائل التي أرسلها إلى صديقه الهولندي يعقوب جوليوس (Jacobus Golius)[٢] بترجمة كتاب في الطب اسمه (الكتاب المستعيني)[٣]، وهذا الكتاب موجود إلى اليوم في مكتبة جامعة ليدن، وعليه ملاحظات وتصحيحات كتبها الحجري بخط يده باللغتين الإسبانية والعربية[٤].

وقد خصَّص الحجري جزءاً كبيراً من عمره لترجمة مؤلفات ونصوص إسلامية إلى اللغة الإسبانية لخدمة الموريسكيين المقيمين في المنفى، والذين لا يجيدون العربية، فقام بترجمة فصل من كتاب «الشفا في حقوق المصطفى»، للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م)، وأتمَّ ترجمته سنة (١٠٤٤هـ/١٦٣٤م) بتونس، كما قام بترجمة صلاة عيد الفطر، وكتب ملخَّصاً بالإسبانية لكتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين»[٥].

---

(١) الحجري، ناصر الدين، تحقيق السامرائي وآخرون، ٥٠؛ فوك: تاريخ الاستشراق، العقيقي: المستشرقون، ٣٠٣/٢؛ بدوي: موسوعة المستشرقين، ١٧.

(٢) يعقوب جوليوس: مستشرق هولندي ولد في لاهاي سنة (١٥٩٦م)، وأخذ العربية عن أربنيوس في جامعة ليدن، ثم خلفه في شغل كرسي أستاذ العربية بالجامعة، له عدة مؤلفات عن العربية، توفي سنة (١٦٦٧م). فوك: تاريخ الاستشراق، ١٧١، العقيقي: المستشرقون، ٣٠٤/٢؛ الزركلي: الأعلام، ١٣٢/٨.

(٣) الكتاب المستعيني: هو مؤلف في الطب ليوسف بن إسحاق بن بكلارش اليهودي، طبيب أندلسي، ألف كتابه هذا للمستعين بالله أحمد بن يونس بن هود (ت ٥٠٣هـ/١١٠٩م)، كما في مقدمة النسخة. الزركلي: الأعلام ٢١٧/٨؛ وانظر: الحجري: ناصر الدين، ص٧٧، ملحق (٢).

(٤) الحجري: ناصر الدين، ٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ١٥٢؛ عبدالرزاق: قراءة في كتاب ناصر الدين، ١٢.

٢- سبب تأليفه للرحلة:

أمَّا عن سبب تأليف الحجري لرحلته فقد ذكر في مقدِّمتها أنه وحين مروره بمصر بعد رجوعه من رحلة الحج عام (١٠٤٧هـ/١٦٣٧م)، تقابل مع الشيخ الأجهوري، الفقيه المالكي بمصر، وفي ذلك اللقاء تتابعت الذكريات على الحجري، وانساب حلو الكلام بين الرجلين حتى أخرج الحجري ما في جعبته عن ماضٍ مليء بالمغامرات والرحلة والعلم والاعتزاز بالدين الإسلامي، تلك التجربة الفريدة التي رآها الشيخ الأجهوري علماً مستفيضاً وتجربة تستحق أن تعرفها الأجيال القادمة، جعلته يحض الحجري على كتابتها، فدوَّنها بعد أمرٍ من شيخه(١).

٣ - وصف الرحلة:

تتمحور رحلة الحجري –جول فراره بدينه وبدنه من ملاحقة محاكم التفتيش سنة (١٠٠٦هـ/١٥٦٧م) من ضواحي غرناطة، وذهابه إلى مرسى شنتمرية بالبرتغال، وتنكره كنصراني من أشبيلية، ثم ركوبه سفينة برتغالية ليهرب هو وجماعة معه إلى بلاد المسلمين، وترسوا بهم هذه السفينة في ميناء آزمور المغربي(٢).

وقد عرضت رحلته تطورات الأوضاع التي دفعت المسلمين الموريسكيين إلى مواجهة السلطات النصرانية تصدياً لحملة التنصير التي أجبروا عليه، وكيف أدَّت لاندلاع ثورتهم الكبرى في غرناطة، بالإضافة إلى الحيل التي لجأوا إليها للتخفي من محاكم التفتيش التي استهدفتهم وأنزلت بهم أشد صنوف

(١) الحجري: ناصر الدين، ٤٩.
(٢) المصدر نفسه، ٤٥-٤٦، ٦٩.

العذاب[١]، تلتها رحلة الحجري في وصف المناطق التي زارها كـ:لاهاي (بين ١٠٢٠-١٠٢٢هـ/ ١٦١١-١٦١٣م)، وهي تروي عن زياراته لبلاد الهولنديين يصف فيها هذه المدينة، إضافة إلى وصفه لمدينة امستردام[٢]، كما انه زار فرنسا وأُبهر بمدينة باريس التي وصفها وصفاً دقيقاً[٣].

وقد انشغل في هذه الرحلة بمحاورة الفرنسيين والهولنديين سواءً من رجال الدين أو الساسة من أجل عرض قضية الموريسكيين، فكانت مناظراته معهم حول الأديان[٤].

(١) نفسه، ٤٦-٤٩، ٦٠-٦١.
(٢) نفسه، ١١٣، ١٢٣.
(٣) نفسه، ٨٣.
(٤) نفس المصدر في مواضع متفرقة.

٤ – خطُّ سير الرِّحلة:

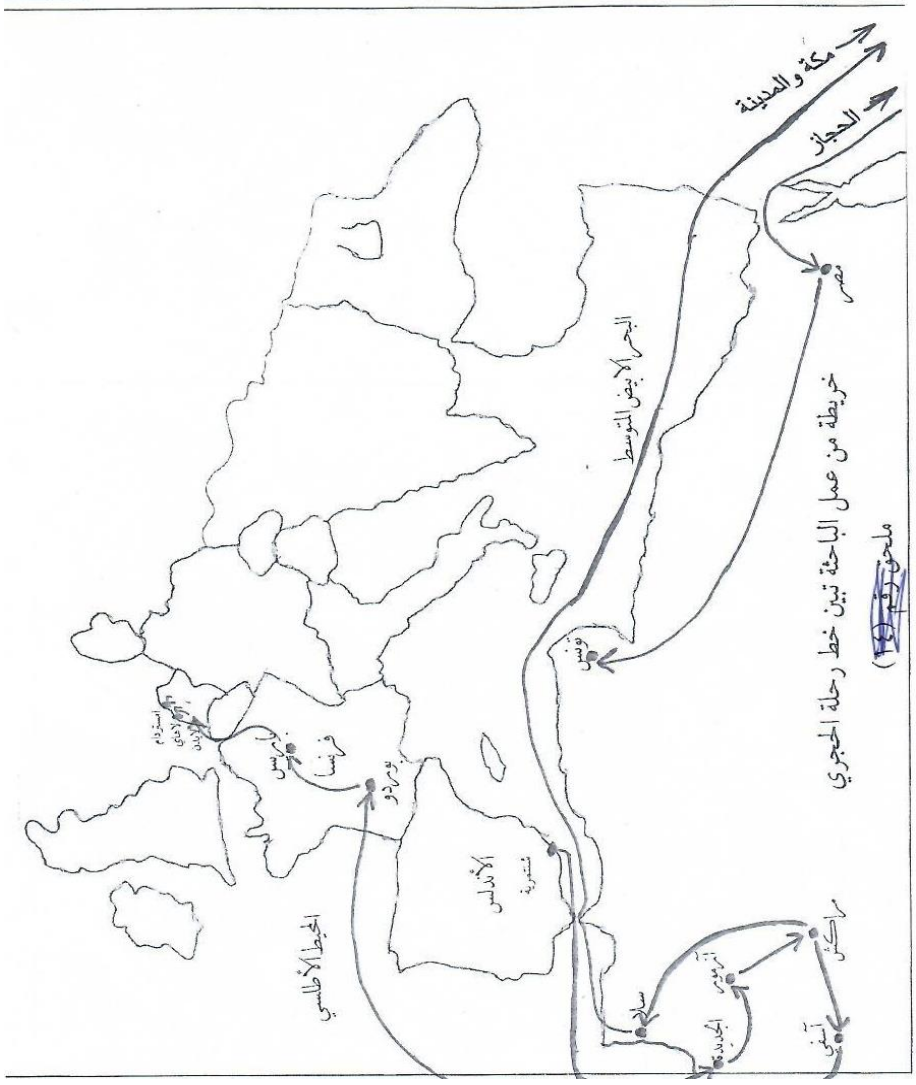

خريطة من عمل الباحثة تبين خط رحلة الحجري

٥ – أهميَّة رحلة الحجري:

تكمن أهميَّة رحلة الحجري في أهميَّة مؤلِّفها، إذ أنَّه يُعَدُّ شخصيَّة يحوطها كثير من الاهتمام باعتباره أحد الموريسكيين الأندلسيين الذين وُجدوا في فترة شحَّت المعلومات في المصادر بالحديث عنهم، فجاءت رحلته هذه لتعطي صورة واضحة لتجربة موريسكية مغامرة من قلب الحدث.

وتمثل رحلة الحجري واحدة من الرحلات التي سجلت بنصها وبفعلها جانباً من التواصل الحضاري بين الشرق والغرب في مطلع القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وهو القرن الذي شهد ما يمكن تسميته العصر الذهبي للدراسات العربية في أوروبا، وقد نالت هذه الرحلة مؤخراً اهتمام الباحثين لغناها وللجوانب المتنوعة التي شملتها(١).

وقد استطاع الحجري نتيجة عوامل عدة أن يتبوَّأ مكاناً مميزاً في تاريخ الاستشراق، حيث استطاع بتكوينه العلمي وتعدُّد لغاته وثقافته وقوة منطقه وجداله ومنصبه الرسمي الذي أتاح له السفارة والتنقل أن يكون صاحب فضل على عدد من رواد الاستشراق في فرنسا وهولندا، وهي البلاد التي زارها في رحلته، وتكشف رحلته وآثاره عن أهمية لقائه بهم في دفع عجلة الاستشراق والدراسات العربية في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي في أوروبا(٢).

ونجد أنَّ رحلة الحجري –أفوقاي– هي نوع من الرحلات السفارية أو الدبلوماسية التي قام بها أحمد بن قاسم سفارةً عن السلطان المغربي إلى

(١) رشا الخطيب: أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي، المترجم والرحالة والسفير، ط١، دار السويدي، ٢٠١٨م، ٥٩.

(٢) المرجع نفسه، ٦٣؛ فوك: تاريخ الاستشراق، ١٨.

فرنسا، وقامت الرحلة في أصلها من أجل هدف محدَّد وهو تخليص ما ذهب من بعض الأندلسيين على يد البحارة الفرنسيين في طريق هجرتهم من إسبانيا إلى المنفى(١). لكن خطاب الرحلة نفسه هو خطاب فكري إلا في مواضع قليلة، سعى فيه الحجري إلى تسجيل ملاحظاته الثقافية ومجادلاته الدينية التي جرت له في أثناء رحلته، وهي تشير كذلك إلى الدور الثقافي الذي قام به هذا السفير الرحالة في الحياة العلمية والثقافية في أوروبا في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، ولهذا يمكن القول إن الرحلة احتوت أهدافاً ثقافية كانت تتمثل في تحصين وتقوية الشخصية الثقافية الإسلامية(٢).

وترى الموسوعة العالمية أنَّ هذه الرحلة تدخل ضمن السيرة الذاتية لأن المؤلف والراوي والرحالة هم شخص واحد، لذا فإن رحلته هذه قد لا تكون من جنس الرحلة الخالصة، فهي نوع من السيرة الذاتية، سجل فيه حوادث كثيرة جرت له في حياته قبل خروجه من الأندلس وهروبه إلى المغرب بلاد المسلمين، ثم سفارته إلى رجوعه من الحج(٣).

والأكثر أهمية في هذه الرحلة أنها تكشف نموذج موريسكي كامل على المستوى العلمي والثقافي لدى الموريسكيين، وطبيعة حياتهم في ظل هذه الظروف التي مروا بها، كما تكشف مستوى الانعكاس الدولي لقضيتهم، والمحاولات التي بذلها هؤلاء فراراً بدينهم أو العودة إلى ديارهم(٤).

وتكشف الرحلة أيضاً مواقف العلماء المسلمين وكذلك الحكام في المغرب

---

(١) الحجري، ناصر الدين، ٤٦.
(٢) الخطيب، أحمد بن قاسم الحجري، ٦١.
(٣) نفس المرجع، ٦٢.
(٤) نفسه، ٩٣.

وتونس ومصر خصوصاً من هذه القضية المعقدة والصعبة التي كان عنوانها: «الموريسكيين»[١].

٦ – تحقيق الرحلة:

في عام (١٩٨٧م) نشر محمد رزوق تحقيقاً لمختصر رحلة احمد بن قاسم الحجري بعنوان: (ناصر الدين على القوم الكافرين)، وهي المرة الأولى التي يُعرف فيها مخطوط الكتاب طريقه إلى المطبعة، وقد يسر نشر النص السبيل أمام الباحثين المهتمين بدراسة هذه الشخصية أو بدراسة تاريخ الموريسكيين[٢].

ثم اغتنى البحث العلمي من جديد حول الحجري وأعماله بنشر تحقيق ثان لمختصر رحلته مع ترجمة إنجليزية، فصدرت في سنة (١٩٩٧م) في إسبانيا طبعة ثانية من الكتاب بعناية بعض[٣] أساتذة الدراسات الإسلامية والعربية في هولندا، مع مقدمة نقدية في سيرة المؤلف ونص الكتاب[٤].

ثم نُشر بعد ذلك بقليل في سنة ١٩٩٩م تحقيق جديد لناصر الدين على القوم الكافرين في بيروت بعناية أحمد حسن، ثم صدرت طبعة جديدة عام ٢٠٠٤م لمحمد رزوق[٥].

وفي عام ٢٠١٥م قدَّم هشام الدين شاشية طبعة جديدة لكتاب ناصر الدين على القوم الكافرين ضمن سلسلة ارتياد الآفاق في أبوظبي حازت على جائزة

---

(١) نفسه، ٩٤.
(٢) الخطيب: أحمد بن قاسم الحجري، ٣٤.
(٣) الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: السامرائي وآخرون،
(٤) الخطيب، أحمد بن قاسم الحجري، ٣٨.
(٥) المرجع نفسه، ٣٨-٣٩.

ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات ٢٠١٤-٢٠١٥م، معتمداً في طبعته الجديدة على نسخة مخطوطة غير النسخة التي كانت أساس الطبعات السابقة المنشورة للكتاب، وتضم فروقات عدة عن النسخة السابقة (نسخة دار الكتاب المصرية المعروفة بالنسخة التونسية استناداً إلى مكان نسخها)، وقدم بين يدي النص المحقق بدراسة في سيرة المؤلف وفي وصف النسخة ومنهج التحقيق(١).

ثانياً: الحياة العلمية للموريسكيين من خلال رحلة الحجري

١ - دور السلطات النصرانية في تقليص الحركة العلمية لدى الموريسكيين:

يعتبر العصر الذي عاش فيه الحجري بمثابة اللحظة الحاسمة التي شهدت أفول الوجود الإسلامي على أرض الأندلس، وذلك بعد قرار التنصير القهري الذي صدر بحقِّ هؤلاء المضطهدين سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م)، فألزمهم باعتناق الكاثوليكية أو الرحيل(٢).

وقد عاصر الحجري تلك الفترة الانتقالية العصيبة التي أُجبر فيها مسلمو الأندلس على تغيير دينهم الإسلام قسراً واستبداله بالنصرانية دين النخبة الحاكمة آنذاك(٣).

ومن خلال ما سطر لنا الحجري في رحلته يتبيَّن أنه قد شهد أقسى فترات الاضطهاد لموريسكيي الأندلس من قبل الحكومة النصرانية، إذ استلبت الحقوق

(١) الحجري: ناصر الدين، ١٥-٣٧، وهي النسخة التي اعتمدناها في هذه الدراسة.
(٢) عنان: نهاية الأندلس، ٣٢٢؛ ميكيل إينالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبدالرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م، ٦٧؛ محمد حتاملة: مصير المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، بحث ضمن ندوة الأندلس، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٤م، ٥٠٨.
(٣) الحجري: ناصر الدين، ٤٧-٤٨.

والضمانات، وحولت المساجد إلى كنائس، بل إنَّ بعضها هُدم، وحُضر على المسلمين إقامة شعائرهم، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم وأصبح الواحد يعرف بين الناس بلقب الموريسكي (elmorisco)[١]، تصغيراً لكلمة المورو (Moro)، بمعنى المسلم، فاللقب الجديد يقصد به الإشارة إلى ذلتهم وحقارتهم والتقليل من قدرهم، والحجري نفسه كان يحمل اسمين أحدهما موريسكي وهو: (بيخيرانو)، وهو الاسم الذي يتعامل به هو وبقية الموريسكيين لدى السلطات النصرانية وفي الدوائر الرسمية، أما اسمه الثاني فهو أحمد أبوالقاسم، والذي عُرف به في أوساط الموريسكيين[٢].

وقد وصف لنا الحجري مدى ما وصل حالهم إليه من اضطهاد وتشديد بقوله: «وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهراً، ودين المسلمين في خفاء من الناس، وإذا ظهر على أحد شيءٌ من عمل المسلمين يحكمون فيه الكفار الحكم القوي، ويحرقون بعضهم كما شاهدت بحالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها»[٣].

---

(١) الموريسكي: لفظ موريسكو (Morisco)، تصغير لكلمة مورو (Moro)، وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية (Mouritanio)، وكانت قديماً تطلق على الشمال الأفريقي كله، ثم أطلقت على المسلمين الذين كانوا في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد فتحها حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، ثم على المسلمين الذين بقوا في الممالك الإسبانية وأجبروا على اعتناق المسيحية. الطاهر مكي: الموريسكيون في الفكر التاريخي الإسباني، ضمن ندوة الأندلس، ط١، مكتبة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٩٦م، ١٤٣/٢؛ حتاملة: مصير المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، ٥٠٨.

(٢) الحجري: ناصر الدين، ١٥، ٤٦، ٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ٤٨.

وهكذا نجد أنَّ الإجراءات التي اتَّخذتها السلطات النصرانية لم تقتصر على الأسماء العربية للموريسكيين، ولكنَّها طالت العقيدة الإسلامية، ومحو كل ما يمتُّ لها بصلة لا سيما إذا علمنا أنَّ اقتناء القرآن الكريم أو شيئاً من المخطوطات العربية كان سبباً في مواجهة عقوبة الموت على يد محاكم التفتيش، وهذا ما أورده الحجري عند حديثه عن تعلمه للغة العربية خفية –بعد أن جاوز الخامسة من عمره– حتى عن والديه اللذين كانا يخشيان عليه من أحكام النصارى التعسفية ضد من يُعرف أنَّه يتحدَّث اللغة العربية أو أنَّ لديه شيئاً من كتب المسلمين وعلومهم(١).

بل إنَّه وصف حالة الهلع التي انتابته عندما افتقد بعض أوراق مخطوطات عربية كان قد أخذها من ابن عمٍّ والده فخشي أن تقع بيد أحد النصارى فيُحاكم على ذلك(٢).

وإزاء كل هذه الإجراءات من قبل الحكومة النصرانية في التضييق على مسلمي الأندلس في كل ما يخصُّ الدين الإسلامي ولغته نجد أنَّ الموريسكيين قد اضطروا إلى العمل بمذهب (التقية)(٣)، إذ أنهم كانوا يظهرون النصرانية وشعائرها أمام الناس، بينما هم مسلمون في قرارة أنفسهم، بل إنهم يؤدون فرائض الإسلام كاملة دون تقصير رغم كل المضايقات والضغوط(٤)، وفي

(١) الحجري: ناصر الدين، ١٣٦.

(٢) نفس المصدر، ١٣٨.

(٣) التقية: التقية لغة: هي الحذر أو الخوف والكتمان، واصطلاحاً: ترك فرائض الدين في حالة الإكراه أو التهديد. موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط١، إشراف: محمد سرحان، مركز الشارقة الفكري، ١٩٩٨م، ٢٣٥٨/٨.

(٤) مانثا ناريس: المستعربون الأسبان، ط١، محمد قشتيليو: حياة المويسكيين الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ط١، تطوان، ٢٠٠١م، ١٣-١٤.

ذلك يقول الحجري: «من نعم الله عليَّ بأن جعلني مسلماً في بلاد الكفار منذ أعرف نفسي ببركة الوالدين رحمهما الله وإرشادهما»[١]، ومعنى هذا أنه لم يكن للموريسكيين أماكن للتعليم ظاهرة، بل كل جهدهم كان خفية في منازلهم، أو أماكن خاصة بهم لا يطلع عليها إلا من يثقون به من بني ملَّتهم، الأمر الذي أدَّى إلى صعوبة تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، وكل ما يمتُّ لهذه الفئة من حضارة، وهذا ما حكاه الحجري بقوله: «كان الأندلس يخافون بعضهم من بعض ولا يتكلَّمون في أمور الدين إلا مع من هو ثقة، وكثيرٌ منهم كانوا يحبُّون يتعلمون شيئاً من دين الله ولا يجدون من يعلِّمهم»[٢].

وإزاء هذا كلِّه هل وقف هؤلاء الموريسكيون موقف المتفرج تجاه ما يقوم به النصارى من حرب على دينهم ولغتهم بل ثقافتهم؟ أم أنَّهم بحثوا عن سبل أخرى للخروج من هذا المأزق، وحاولوا التعايش مع هذا الوضع، محافظين على هويتهم دون أن يعرضوا أنفسهم لمحاكم التفتيش التي ما زالت متربصة ليل نهار؟

لقد حاول موريسكيو الأندلس فعل كل ما يستطاع لاستمرار حضارتهم الإسلامية، والمحافظة على عقيدتهم الإسلامية وتداولها بين الأجيال حتى لا تندثر[٣]، وهذا ما نلاحظه في سيرة الحجري وحديثه عن أهل ملَّته من خلال رحلته[٤]، إذ أنَّ كثيراً من الموريسكيين كانوا متمسكين بعقيدتهم الإسلامية، ويتدارسون تعاليمها فيما بينهم، ويتداولون مؤلفاتها في شتى الفروع من فقه

(١) ناصر الدين، ٤٥.
(٢) ناصر الدين، ٦٠.
(٣) إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ٦٣.
(٤) الحجري: ناصر الدين، ١٣٦-١٣٧.

وحديث وعقيدة، ولم يقف الأمر عند ذلك بل إنَّهم استمروا في استخدام ما ورثوه عن إخوانهم -المدجَّنين-[١] من لغة كانت مزيجاً من اللغة اللاتينية «الرومانسية» بحروف عربية، والتي أُطلق عليها «الألخميادية»[٢]، بل سطروا بها في علوم الدين ولغته، واعتبروا ذلك حلاً مؤقتاً لمرحلة لزم المرور بها بانتظار المنقذ العثماني الذي سيلتفت إليهم عن قريب[٣].

وليس معنى هذا أنَّ اللغة العربية قد اندثرت بين صفوف هؤلاء الموريسكيين، فالحجري بنفسه كان ذا علم باللغة العربية وقواعدها وهذا ما نال إعجاب سلطان مراكش عندما ألقى الحجري بحضرته خطبة مرتجلة وعبَّر عن ذلك بقوله:

---

(١) المدجَّنين: هو لفظ أطلق على كل المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد أن سقطت بيد النصارى، فخضعوا لنظم هؤلاء وعاداتهم وتقاليدهم، ولكنهم احتفظوا بعقيدتهم الإسلامية كاملة صحيحة، وبلغتهم إلى حدٍّ ما إلى جانب لغة الدولة. مونتجمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط٢، ترجمة: محمد المصري، بيروت، ١٩٩٨م، ١٦٠؛ عنان: نهاية الأندلس، ٥٦.

(٢) الألخميادية: هو مصطلح إسباني بمعنى المستعجمة، وهو تحريف للفظ الأعجمية، فقيل: الأجميَّة، ثم الأخاميَّة، ثم بعد ذلك الألخميادية، وقد لبثت زهاء قرنين سراً مطمورة حتى ظفر بعض العلماء الأسبان بمجموعة من مخطوطاتها في أوائل القرن الماضي، وعندئذ ظهرت عنها المعلومات الأولى، ومما يجدر ذكره أنَّ هذه اللغة الرومانسية كانت لغة المستعربين، أيام الدولة الإسلامية وكانت معروفة ذائعة في قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية التي تقيم بها طوائف كبيرة من النصارى المستعربين، وكان المسلمون الأندلسيون يستعملون أحياناً في بعض عبارات من هذه اللغة الرومانسية ويسمونه في كتبهم باللطينية، أي اللاتينية، وقد تسرب منها بمضي الزمن كثير من الألفاظ في الزجل الأندلسي، وفي مملكة غرناطة كانت اللغة العربية الشعبية، يتسرب إليها كثير من الألفاظ الرومانسية القشتالية، وهذه هي التي تسربت بالأخص فيما بعد إلى لغة الموريسكيين الألخميادية. انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ط١، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٢٨م، ٥٠٧؛ عنان: نهاية الأندلس، ٤٩٥؛ إينالثا: الموريسكيون في إسبانيا، ٦٢.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ٦٤؛ عنان: نهاية الأندلس، ٣٤٤.

«كيف يكون في بلاد النصارى من الأندلس من يقول باللغة العربية مثل هذا الكلام لأنه كلام الفقهاء»(١).

ولشدة تشبث هؤلاء الموريسكيين بدينهم ومحافظتهم على تعاليمه، فقد ضجرت السلطات النصرانية بذلك، وعلمت أنَّ كل محاولاتها في تنصيرهم ذهبت أدراج الرياح، وكان قرار الطرد النهائي لهم، وهذا ما أجاب عنه الحجري عند سؤاله –أثناء سفارته بهولندا– عن السبب الذي أدَّى بفيليب الثاني إلى طرد الموريسكيين فأجاب: «اعلم أنَّ الأندلس كانوا مسلمين في خفا من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام، ويحكمون فيهم، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم، ولا كان يحمل منهم أحداً إلى الحروب، وهي تفني كثيراً من الناس، وكان أيضاً يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملَّتهم، والبحر يفني كثيراً من الرجال، وأيضاً في النصارى كثير يكونون قسيسين ورهباناً ومترهبات، وبتركهم الزواج ينقطع نسلهم، ففي الأندلس لم يكن فيهم قسيسين ولا رهبان ولا مترهبات، إلا جميعهم يتزوجون، ويزداد عددهم بالأولاد، وترك الحروب، وترك ركوب البحر، وهذا الذي ظهر لي حمله على إخراجهم، لأنهم بطول الزمان يزدادون»(٢).

وفعلاً فإنَّ الموريسكيين كانوا يزدادون بنسبة أكبر من نسبة ازدياد الأسبان، فمن خلال إحصاء سنة (٩٧٣-٩٨٠هـ/١٥٦٥-١٥٧٢م)، إلى غاية الطرد سنة (١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، ازداد الأسبان بنسبة (٤٤,٧%) في حين ازداد الموريسكيون بنسبة (٥٩,٧%)، وهذه النسبة المرتفعة كانت تشكل قلقاً دائماً بالنسبة للأسبان إلى أن وجدوا الحلَّ أخيراً(٣).

---

(١) المصدر نفسه، ٧٨.

(٢) نفسه، ١٢١-١٢٢.

(٣) هورتز وبنثنت: تاريخ مسلمي الأندلس، ٥٨.

وعلى كلٍّ فقد رأى هؤلاء الموريسكيون أو بعض منهم أنَّ قرار النفي فرج من الله سبحانه وتعالى، وهذا ما حكاه الحجري على لسانهم بقوله: «وبعد ذلك باثني عشرة سنة فرج الله على الأندلس المسلمين الذين كانوا تحت قهر النصارى وحكمهم بأن أمر عليهم سلطان فلب الثالث من اسمه بالخروج جميعاً من بلاده»(١).

٣ – أماكن التعليم ووسائله لدى الموريسكيين:

لم يذكر لنا الحجري من خلال رحلته أماكن معتمدة للتعليم تخص الموريسكيين الأندلس، ولكن هذا لا يعني عدم وجود الأماكن التعليمية، لأنه من خلال الوثائق الأخرى التي تحدَّثت عن الموريسكيين أثبتت أن اللغة العربية وجميع علوم الدين الإسلامي كانت تدرَّس بين أوساط الموريسكيين حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وما بعده، حيث أثبت أحد الباحثين ما نصُّه: «كانت هناك مدارس قرآنية سرِّيَّة، يدرِّس فيها بعض الفقهاء الحروف العربية وتعاليم القرآن مما يشكل دعامة لثقافة محظورة تعيش في المخابئ، أحرقت كتبها على يد الكاردينال ثسنيروس، ولم تنتشر الأميَّة بين الموريسكيين إلا في السنوات الخمسينية من القرن السادس عشر»(٢).

ويمكن الاستنتاج فيما دوَّنه الحجري عن وجود نوع من هذه الأماكن التعليميَّة، وهو: المنزل، إذ أنَّه استطاع تعلُّم اللغة العربية وقواعدها بعد زيارة ابن عم والده لهم في منزلهم، ثم أخذ يتبادل معه الدرس من خلال الزيارات التي كانت بينهما في منزل ابن عم والده، بل إنَّه وهبه مجموعة من المخطوطات العربية ليتدرَّب عليها ويتعلَّم، وسمح له بأخذها إلى داره، وهذا

(١) الحجري: ناصر الدين، ٤٥–٤٦.

(٢) قشتيليو: حياة الموريسكوس الأخيرة، ١٣–١٤.

يعطي دلالة قويَّة أنَّ المنزل كان هو المكان الأول للتعليم لدى الموريسكيين في هذا العصر بالذات الذي شدد فيه عليهم تداول شيءٍ من العربية وعلومها والدين الإسلامي وشرائعه(١).

إضافة إلى أنَّ الحجري نفسه يُرجع الفضل في نشأته مسلماً عارفاً بأمور دينه إلى بركة والديه اللذين حرصا على تربيته وتعليمه على الدين الإسلامي، وحفظ شيئاً من القرآن الكريم، وكل هذا بلا شك كان يمارس في المنزل وليس في مكان آخر(٢).

أمَّا بالنسبة للمسجد فإنَّه على ما يبدو قد فقد وظيفته الدينية في هذا العصر، ناهيك عن الوظيفة التعليمية ؛ لأنَّ أغلب المساجد مثلما صوَّر لنا الحجري، قد هدمت أو حوِّلت إلى كنائس، وما مسجد غرناطة الذي حُوِّل إلى كنيسة وحوِّلت مئذنته إلى صومعة إلَّا إحدى الأمثلة البارزة على ذلك(٣).

بيد أنَّ الحجري قد أشار إلى عدَة مكتبات لدى النصارى كانت تحوي عدداً ضخماً من الكتب العربية في كل علم، وقد استفاد منها الموريسكيون في عملية الترجمة التي كان يستخدمها النصارى لصالحهم، والحجري نفسه التقى في إحدى هذه المكتبات بمجموعة من الموريسكيين المترجمين، وكانوا يعكفون على قراءة الكتب العربية لاستخراج ما عجزوا عنه في أمر الترجمة بالنسبة للكتب الرصاصية التي وجدت سنة (٩٨٦هـ/١٥٧٨م)، وبمعنى آخر فإنَّ هذه المكتبات كان يتمُّ بها تبادل الثقافة العربية لدى الموريسكيين سواءً لأجل الترجمة أو لغيرها(٤).

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ١٣٦-١٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ٤٥.
(٣) نفسه، ٥١.
(٤) المصدر نفسه، ٥٤، ٦٠.

ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه إلى ما أشار إليه الحجري كثيراً في رحلته وهي «الإجازة» والتي تعتبر من أهم وسائل التعليم عند المسلمين منذ وقت مبكِّر، ثم أصبحت وسيلة متعارفة لدى الموريسكيين لا سيما في مجال الترجمة إذ أنَّ الحجري أشار إلى عدد من المترجمين الذين نالوا هذا العلم عن طريق الإجازة كالأكيحل الأندلسي الذي كان ترجماناً بالإجازة، والشيخ الصالح الجبّس، وغيرهم، كما أنَّ حفيد الشيخ الجبّس وهو الحكيم محمد بن أبي العاص كان يمارس الترجمة أيضاً(١).

بل إنَّ الحجري لمَّا نجح وأثبت جدارته في ترجمة ما استعصى على كبار المترجمين من أمر الكتب الرصاصية، كافئه القسُّ الأكبر، وكان مما كافئه أن منحه إجازة بالترجمة من العربية إلى العجمية وبالعكس(٢).

وقد استغل هؤلاء الموريسكيون الإجازات التي كانوا يحملونها لأجل الترجمة، فكانوا يتدارسون مع بني ملَّتهم الكتب العربية من خلالها، وهذا ما حكاه إذ أنَّه حمل معه كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي إلى بعض المسافرين الموريسكيين إلى مدينة غرناطة، والتقى بهم في أحد الفنادق وقرأ عليهم هذا الكتاب(٣).

بيد أنَّ الحجري أشار في رحلته إلى ما يستوقف القارئ، وهو مدينة بلنسية حيث ذكر في حديثه مع الراهب أنَّه تعلَّم اللغة العربية عن أحد أطبَّاء هذه المدينة الذي كان يتقنها، وقد سمح لأهل هذه المدينة باستعمال اللغة العربية في غير دين المسلمين، كما يقول الحجري ولكنه لم يوضح السبب في سماح

(١) نفسه، ٥٤.
(٢) نفسه، ٥٧.
(٣) نفسه، ٦٠.

السلطات النصرانية لهم بذلك[١]، ولكننا لو دقَّقنا وجدنا أنَّ بلنسية كانت تضمُّ مدرسة عظيمة أُنشئت سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وما لبثت هذه المدرسة أن تطوَّرت إل جامعة عريقة امتدَّ تأثيرها خارج أسبانيا كلها[٢]، فلا بدَّ أنَّ الحجري قصد بهذا الطبيب أنَّه من أهل جامعة بلنسية وأنَّه أخذ عنه تعلُّم اللغة العربية، ومن هنا ندرك أنَّ الموريسكيين قد استفادوا من الجامعات التي أنشئت في بلادهم آنذاك، وكان منهم طلبة وأساتذة ينتمون إليها.

إضافة إلى ذلك فإنَّ مدينة غرناطة والتي عاش فيها الحجري جزءاً من حياته كانت تضمُّ جامعة عُرفت باسمها[٣]، وإن لم يشر الحجري مباشرة إليها، فإنَّه تحدَّث عن أبرز علماء هذه المدينة من الموريسكيين في مواضع عدَّة[٤] من رحلته، وهو: الأكيحل الأندلسي، والذي عُرف بألونسو دي كاستيو (Alonso de Costi)، وعلى ما يبدو أنَّ الاسم الأخير هو الاسم النصراني الذي أطلق عليه، وقد اعتبر من أشهر الشخصيَّات الموريسكية في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وهو من عائلة غرناطية أُجبرت على اعتناق النصرانية سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، وقد درس الطب في جامعة غرناطة، ثم استدعاه الملك فيليب الثاني إلى بلاطه سنة (٩٩٠هـ/١٥٨٢م)، ليقوم بترجمة المخطوطات العربية بمكتبة الأسكوريال مقابل دخل سخي، وما لبث أن ذاع صيته حتى أصبح مترجم بلاط هذا الملك، حيث فُوِّض بمهمَّة ترجمة مراسلات دبلوماسية مع المغرب[٥].

---

(١) نفسه، ٥٥.

(٢) العسري: الإسلام في تصورات الاستشراق الأسباني، ١٦٢؛ عبدالمحسن: ماذا يريد الغرب من القرآن، ١٣٥.

(٣) (Studies in the history of mediacval science,10).

(٤) انظر صفحة: ٥٤، ٦٢، ٦٤.

(٥) هورتز وبنثنت: تاريخ مسلمي الأندلس، ١٥٤؛ هارفي: تاريخ الموريسكيين، ٣٤٩/١؛ العسري: الإسلام في تصورات الإستشراق الأسباني، ٢٣٠.

وقد اشتغل الأكيحل بالطب لدى السلطات المحليَّة، إضافة إلى عمله في الترجمة حيث كلَّفه رئيس أساقفة غرناطة بترجمة الكتب الرصاصية، والتي اشترك في ترجمتها الحجري أيضاً(١).

وبعد أن عرفنا سيرة هذا الطبيب والمترجم الموريسكي والذي كان الحجري معاصراً له، وكيف أنه درس في جامعة غرناطة استنتجنا أنَّ هذه الجامعة كانت من بين أماكن التعليم لدى أبناء هذه الفئة المسلمة، كما يمكن أن نستنتج أيضاً أنَّ جميع المدارس والجامعات التي كانت بالأندلس تلك الفترة كطليطلة وأشبيلية ومرسية وغيرها قد ضمَّت أعداداً من الطلاب والأساتذة الموريسكيين الذين التحقوا بها، خاصة وهي تضم من بين أقسامها كراسي لدراسة اللغة العربية وعلومها إضافة إلى اللغات الأخرى.

٣ – هجرة الموريسكيين ودورها:

كانت هجرة الموريسكيين تنقسم إلى نوعين من الهجرة: إحداهما داخلية، وهي التي تمَّت داخل المدن الأندلسية، والأخرى خارجية أي أنَّهم تجاوزوا حدود البلاد الأندلسيَّة كلها إلى العالم الخارجي، سواءً بلاد المغرب والشمال الأفريقي أو الدول الأوروبية أو غيرها من المناطق الأخرى.

فبالنسبة للهجرة الداخلية التي انتقل فيها الموريسكيون من موطنهم الأصلي إلى مدن الأندلس الأخرى، فقد تمت عقب ثورة غرناطة سنة (٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، فجُمع على أثرها جميع موريسكيي غرناطة، وتمَّ إخراجهم باتجاه الشمال أو الغرب حيث المناطق الأخرى كقشتالة وإشبيلية وقرطبة وطليطلة وغيرها من المحافظات التي حُدِّدت لتهجير هذه الفئة آنذاك(٢).

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ٥٢، هامش (١).

(٢) جمال الدين: طرد المسلمين من الأندلس، ٢/١٢٠-١٢١.

وعلى ما يبدو أنَّ الحجري كان ممَّن هُجِّر هجرة داخليَّة أو والديه، لأنه كما سبق ذكره قد عاش زمناً من حياته في أشبيلية بعد أن أخرجت عائلته من غرناطة(١)، ولكنه لم يركِّز في حديثه إلَّا عن الهجرة الخارجية التي طالت كثيراً من الموريسكيين، وكانت على وجه التحديد بعد قرار الطرد الذي أصدره الملك فيليب الثالث سنة (١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، وقد كان هذا القرار أشد الأحداث وقعاً في تاريخ أسبانيا، لما تميَّز به من القسوة والَّا إنسانيَّة وما ترتَّب عليه من خسائر لتاريخ أسبانيا عامَّةً(٢).

وقد فنَّد الحجري من خلال رحلته أسباب هذا الطَّرد النهائي للموريسكيين، وأجملها في عدَّة أمور، وهي:

١ – تمسُّك الموريسكيين بالدين الإسلامي الحنيف، رغم كل محاولات الإدماج والتنصير القسريَّة التي مارستها القوى النصرانية ضدَّهم، الأمر الذي جعل أباطرة ورجال الدين الأسبان يشعرون باليأس وعدم الثقة أمام هذه الفئة المنصَّرة قسراً، وهذا ما أفصح عنه الحجري من خلال الترجمة التي قام بها للسلطان مولاي زيدان بقوله: «وقد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدود الأندلس أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية مع التحريض والإرشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيراً ؛ لأنه لم يجد فيها واحداً من هو نصراني حقيقة..»(٣).

٢ – غضب السلطات النصرانية من تواصل الموريسكيين مع القوى الإسلامية الخارجية كالخلافة العثمانية، والدول الإسلامية بالمغرب وغيرها

(١) الحجري: ناصر الدين، ٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ٤٥؛ عنان: نهاية الأندلس، ٤٠.
(٣) الحجري: ناصر الدين، نسخة رزوق، ص١١٨.

وهو ما ذكره الحجري أيضاً في ترجمته السابقة بقوله: «ونحن في هذا تحققنا وصح من وجوه أنهم بعثوا للتركي الكبير باسطنبول ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون أن ينجدوهم، وأنهم عندهم مائة وخمسون ألف رجل مسلم مثل الذين ببلاد المغرب الأفريقية، وأيضاً بعثوا لأعدائنا البحرية بالجبهة الشمالية التي تحت القطب،..وأنعموا أنهم يعينهم بسفنهم..»(١).

٣ – ازدياد أعداد الموريسكيين، الأمر الذي شكَّل قلقاً دائماً بالنسبة للأسبان وهو ما أشار إليه الحجري في رحلته بقوله: «وأيضاً في النصارى كثيرون قسيسون ورهبان ومترهبات وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان ولا مترهبات، إلا جميعهم يتزوجون، ويزداد عددهم بالأولاد وبترك الحروب وركوب البحر وهذا الذي ظهر لي حمله على إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون»(٢).

ثم كل هذه الأسباب جعلت السلطات النصرانية تتخذ كل التدابير والقرارات الصارمة لتهجير الموريسكيين خارج أسبانيا، وعلى الرغم من كل ما تكبَّده هؤلاء الموريسكيون من عناء ومآسي في سبيل هذه الهجرة إلا أنهم كانوا يعتبرونها بمثابة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهذا ما ذكره الحجري بقوله: «وقد جعل الله في قلبي محبةً للخروج من بلاد الأندلس مهاجراً إلى الله ورسوله والقدوم إلى بلاد الإسلام»(٣).

كما اعتبر فريق من الموريسكيين أنَّ قرار النفي فرج من الله، وهذا ماعناه الحجري بقوله: «..وبعد ذلك باثني عشرة سنة فرَّج الله على الأندلس المسلمين

(١) الحجري: ناصر الدين، نسخة رزوق، ص١١٨.
(٢) نفسه، ١٢٢.
(٣) نفسه، ٤٥.

الذين كانوا فيها تحت قهر النصارى وحكمهم بأن أمَّر عليهم سلطان فلب الثالث من اسمه، بالخروج جميعاً من بلاده»[١].

وقد صوَّر الحجري مدى الأخطار التي واجهها الموريسكيون في هجرتهم، وكيف كانت رحلة الخروج هذه مليئة بالمتاعب والشقاء إذ يقول: «واتفق لكثير من مسلمي الأندلس عند خروجهم بأن نهبهم في البحر النصارى، وأكثرهم الفرنج البحرية الذين اكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين، وخانوهم كل واحد في سفينة وبعد أن أخذ كل ما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين»[٢].

وهذا ما أكَّده في موضوع آخر بقوله: «كان الأندلس يقطعون البحر في سفن بالكراء، ودخل كثيرٌ منهم في سفن الفرنج ونهبوهم في البحر»[٣].

وهذا يعني أنَّ القمع والتشديد على الموريسكيين لم يقتصروا داخل حدود أسبانيا إنَّما تعدَّاها إلى البحر وأهواله حيث استغلَّ هؤلاء النصارى ما كان يمرُّ به الموريسكيون من ظروف وخوف وحاجة فأخذوا في ابتزازهم ونهبهم وتعذيبهم.

أمَّا عن عدد المهاجرين إلى خارج أسبانيا، فقد قدَّره الحجري بثمانية مليون موريسكي[٤]، وإن كان يختلف في إحصائيته هذه عن بقيَّة المصادر الأخرى[٥]، إلَّا أنَّه يدلُّ على أنَّ عدد المهجَّرين من هذه الفئة كان كبيراً جداً، وهنا يتساءل القارئ أين ذهب هؤلاء، وما هي البلدان أو الدول التي قامت

(١) نفسه، ٤٦.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه، ٧٨.
(٥) محمد رزوق: التجربة الأندلسية، ٢/٢٠-٢١.

باستضافتهم واستقبالهم؟ وكيف كانت حياتهم في موطنهم الجديد؟ وما هو تأثيرهم في هذه البلدان التي استوطنوا بها؟

كل هذه التساؤلات فنَّدها رحالتنا الحجري من خلال رحلته، لا سيما وهو ممن جرَّب هذه الهجرة وعنائها، بل إنه كان شاهداً على ما حصل لهؤلاء المهجَّرين في مختلف البلدان.

فبالنسبة لمناطق هجرة هؤلاء الموريسكيين، نجد أنَّ بلاد المغرب كانت وجهتهم الأولى، فبحسب ما ذكره بقوله: «وجاء إلى مراكش أندلس منهوبون من الفرنج في أربع سفن»(١).

بل نجده يحدِّد عدد الموريسكيين الذين كانت وجهتهم بلاد المغرب بما يقرب من ستين ألف موريسكي(٢)، والذين قوبلوا بكرم الضيافة وحفاوة الاستقبال على حدِّ تعبيره، بل إنه هو نفسه كان ممن يمَّم وجهته إلى مدينة مراكش، ودخل في خدمة سلطانها مولاي زيدان آنذاك(٣).

ويذكر الحجري أنَّ هذا السلطان كان مهتماً بقضايا الموريسكيين، حريصاً على حلِّ مشاكلهم، متفهِّماً لكل ما يطرحونه من قضايا، وليس أدل على ذلك أنَّه أرسل الحجري ومجموعة معه في سفارة إلى عدَّة دول لحل قضية الموريسكيين وأزمتهم، وهذا ما قاله الحجري بنفسه: «واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجال من المنهوبين ويمشي بهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج، واتفقوا أنني أمشي بهم، وأعطاني السلطان كتابه، وركبنا البحر المحيط»(٤).

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ٧٨.

(٢) نفس المصدر، ١٥٧.

(٣) نفسه، ٤٥-٤٦.

(٤) نفسه، ٤٦.

إلا أنَّ الأوضاع الداخلية للمغرب، حسب ما ذكرته المصادر من أحداث سياسية للدولة السعدية آنذاك، توضح خلاف ذلك، إذ أنَّ الصراعات بين أبناء الأسرة السعدية والانقسامات لم تمنع تدخل المغاربة لمساندة الموريسكيين فحسب، بل شجَّعت الأسبان على التعجيل بطردهم من أسبانيا، كما أنَّ المصلحة العليا لهذه الدولة كانت تقتضي اتباع سياسة الحذر وعدم الزج بتلك المصلحة في متاهات لا تحمد عقباها، إذ أن عدوا مشتركاً لكل من أسبانيا والمغاربة متمثل في الأتراك العثمانيين كان يجعل من الحكام السعديين والسلطات الأسبانية يبنيان لبعضهما البعض مهادنة ضمنيَّة ضد العدو المشترك(١).

وعلى كلٍّ فقد كانت بلاد المغرب الوجهة الأولى لهؤلاء الموريسكيين الذين تأقلموا مع الحياة المغربية الجديدة، وقد كان لهم أثر في أنماط الحياة المختلفة، فالحجري نفسه تقلَّد مناصب مرموقة لدى الحكام السعديين حيث عمل ترجماناً لدى السلطان زيدان بن أحمد المنصور، كما كان كاتبه باللسان الأسباني، ثم قام بالترجمة لولديه من بعده، وقبل ذلك عيَّنه السلطان زيدان سفيراً له في عدَّة دول لأجل قضيَّة الموريسكيين(٢).

والموريسكيون في المغرب كان لهم كيان قوي بدليل أنَّه كان لهم رئيس يسمَّى (رئيس الطائفة الأندلسية)، كما ذكر ذلك الحجري، وهو الذي تزوج الحجري بابنته(٣)، إضافة إلى أنه كان منهم علماء ومثقَّفون أدَّوا دورهم في الحياة العلمية المغربية(٤).

---

(١) انطونيووبيرنارد: تاريخ الموريسكيين، ط١، هيئة أبوظبي، ٢٠١٣م، ٤٥٩.
(٢) الحجري: ناصر الدين، ١٥٥.
(٣) نفس المصدر.
(٤) انظر الحياة العلمية من هذا البحث.

وإلى جانب المغرب نجد أنَّ عدداً من هؤلاء الموريسكيون اتجهوا إلى تونس، وهذا ما أكَّده الحجري حيث ذكر أنَّ جلَّ الموريسكيين انتقل إلى تونس بقوله: «بلغ نهاية جميع الأندلسيين بصغارهم لثمان مائة ألف مخلوق، أكثرهم خرجوا إلى تونس»[١]. وهذا ما أكَّدته المصادر الأخرى حيث اعتبرت تونس البلد الذي استقبل أكبر عدد من الموريسكيين، أكثر من العدد الذي استقبله المغرب نفسه[٢].

أمَّا عن استقبال أهل تونس للموريسكيين فبحسب رحالتنا الحجري نجد أنَّهم استُقبلوا استقبالاً حسناً سواء على المستوى العام أو المستوى الرسمي، فعلى المستوى الرسمي ذكر الحجري حسن استقبال عثمان داي[٣] لهم بقوله: «كان عثمان داي أميراً فيها، وتكفل أمورهم بالسكنى في المدينة وغيرها في القرى، وأحسن إليهم غاية الإحسان، أحسن الله إليه»[٤]، ولم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية، فقد بادر التونسيون أيضاً إلى تقديم المساعدات كافة لهؤلاء الموريسكيين، وهذا ما قاله الحجري في رحلته: «الولي الشهير سيدي أبوالغيث القشاش[٥] يعطيهم كل يوم نحو ألف وخمسمائة قرص من الخبز صدقة»[٦].

---

(١) الحجري، ناصر الدين، تحقيق: رزوق، ٥٨.
(٢) رزوق: التجربة الأندلسية، ٢١/٢.
(٣) انظر لترجمته: الحجري، ناصر الدين، تحقيق رزوق، ص٥٠.
(٤) الحجري، ناصر الدين، تحقيق رزوق، ص٥٠.
(٥) انظر لترجمته: عبدالقادر الجيلاني: سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تحقيق: أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، ٥١٢.
(٦) الحجري، ناصر الدين، تحقيق رزوق، ص٥٠.

والحجري بنفسه انتقل إلى تونس بعد أن كان يسكن المغرب، وفضَّل الاستقرار بها، وأوضح أنها الأفضل للعيش بالنسبة للموريسكيين بقوله: «في كل الأوقات وبأي حال من الأحوال، وحتى اليوم، تونس هي أفضل مستقرٍّ للأمَّة»(١).

ومن أهم تجمعَّات الموريسكيين التي ذكرها الحجري فرنسا، إذ تحدث في سفارته التي اتجهت إلى هذه الدولة عن وجود قاضٍ للأندلسيين في المجلس الملكي بفرنسا، مركزه في سان جان دي لوز (saint jean de luz)(٢) بفرنسا يختاره الملك من بين النصارى ليقضي بين الأندلسيين في نزاعاتهم ولأخذ خمس أملاك أغنيائهم لصرفها على فقرائهم(٣).

ومن خلال السفارة نبيَّن أنَّ الحجري قد توجَّه إلى فرنسا لحلِّ أزمة الموريسكيين بها إذ أن السلطات الفرنسية كانت شديدة العداء لهؤلاء المهاجرين إليها، ولم يقتصر العداء على الوجود الموريسكي بالتراب الفرنسي، بل برز بوضوح أثناء عمليات نقلهم عبر البحر إلى الشمال الأفريقي للتخلص منهم إذ تعرَّض الموريسكيون إلى السلب والنهب من طرف أرباب السفن الفرنسية، وهذا ما وضحه بقوله: «كان الأندلس يقطعون البحر في سفن بالكراء، ودخل كثيرٌ منهم في سفن الفرنج ونهبوهم في البحر، وجاء إلى مراكش أندلس منهوبون من الفرنج من أربع سفن»(٤).

---

(١) الحجري، ناصر الدين، ١٥٧، ملحق (١).
(٢) مدينة فرنسية تقع أقصى الحدود الغربية الفرنسية الأسبانية، الحجري، ناصر الدين.
(٣) الحجري: ناصر الدين، ٨٤، ٩١.
(٤) نفس المصدر، ٧٨.

وقد عرفت بالفعل بعض هذه القضايا على المحاكم الفرنسية وأصدرت فيها أحكاماً[١].

كما أشار الحجري إلى عدد من الموريسكيين الذين كانت وجهتهم القسطنطينية، وبلاد الشام، حيث مقر الخلافة العثمانية، وبلا شك ذكر أنهم سيعاملون بعدل أكبر، لوجود السلطة الحاكمة، وأفضلية الحياة بها، إضافة إلى أجواءها الجميلة والمساعدة على العيش بقوله: «وسيتمتعون بطقس أكثر برودة من طقس أفريقيا، الذي مع الحرارة يحرق الدم، فلا ينقص الحسرة ولا الأحزان»[٢].

وبالتأكيد فإنَّ هذه الهجرات المتوالية للموريسكيين كان لها أثر كبير في الناحية العلمية، وهذا ما لمسناه من رحلة الحجري في حديثه عن عدد من الدول التي زارها وكان بها جاليات موريسكية آنذاك، وكيف أنه تحاور معهم في مسائل وأمور علميَّة كثيرة[٣]، والحجري نفسه من أعظم الموريسكيين تأثيراً برحلاته بدءاً بالبلدان الإسلامية التي حلَّ بها لا سيما المغرب حيث أنه أسهم في المجال العلمي بها، ولمع نجمه لدى حكام الدولة السعدية، وعمل ترجماناً لسعة ثقافته، وتعدد لغاته، وكثيراً ما طلب منه ترجمة رسائل أو مؤلفات بلغات مختلفة سواء من قبل الأمراء أو بشكل رسمي من الحكام[٤]، حيث طلب منه السلطان زيدان أن يترجم للعربية كتاباً عظيماً في الجغرافيا فيه

(١) نفسه، ١٦-١٦١.
(٢) نفسه، ١٥٧.
(٣) نفسه، ٨١، ٨٥، ٨٨، ١٠١، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢ وغيرها.
(٤) نفسه، ١٥٥.

تصوير كل بلاد الدنيا[١]، إضافة إلى ترجمته لقرار الطرد الوارد من فيليب الثالث إلى ديوان السلطان المغربي مولاي زيدان سنة (١٠١٨هـ/١٦٠٩م)، وهذا ما ذكره الحجري بقوله: «جاءت نسخة من البراءة إلى مراكش، وترجمتها للسلطان مولاي زيدان رحمه الله»[٢].

ولا شك أنَّ أعداد الموريسكيين المتزايدة على كل من هذه الأصقاع المختلفة وقد حملوا معهم كل مقومات الحياة واستقروا بها، فلا بدَّ أنهم أثَّروا فيها كما قد تأثَّروا، ففي فرنسا يصف الحجري عاصمتها باريس بأنها: «يدرس في هذه المدينة كل أنواع العلوم بلغات مختلفة كاللاتينية والعبرية واليونانية والعربية، في كل يوم تطبع كتب في علم العربية»[٣].

ولم يقتصر الأمر على باريس لوحدها، بل نجده يصف بقية الدول الأوروبية بقوله: «هكذا في روما، وهولندا وألمانيا وباريس يترجمون بعض الكتب ويوفقون في الغالب»[٤]، وإن كان الحجري لم يحدِّد أنَّ تعليم العربية أو اقتناء وترجمة هذه الكتب كان من قبل الموريسكيين، فمن المؤكَّد أنَّهم قد أدلوا بدلوهم في هذا المضمار كيف لا وقد كان منهم من يتقن عدَّة لغات إلى جانب معرفه بالعربية، ومنهم من كان لديه دراية وعلم بعلوم العربية والاطلاع على بعض مؤلفاتها[٥]، والحجري نفسه أسهم بسهم وافر في الناحية العلمية من خلال رحلته، حيث تتلمذ على يديه عدد من علماء أوروبا ومستشرقيهم -كما

(١) نفسه، ١٤٠.
(٢) الحجري، ناصر الدين، تحقيق رزوق، ص٥٠.
(٣) الحجري، ناصر الدين، ص١٦١.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) مانتاناريث: المستعربون الأسبان، ١٥؛ إيبالثا: الموريسكيون في أسبانيا وفي المنفى، ٦٥.

رأينا من قبل- أمثال هلبرت الفرنسي، والمستعرب الهولندي توماس أربينوس أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن مستقبلاً[١].

٤ – ثقافة الموريسكيين وإنتاجهم العلمي:

رغم نسيان الموريسكيين التدريجي للغتهم العربية لغياب فرصة استخدامها في حياتهم اليومية، فإنهم قد حرصوا على المحافظة على تراثهم الثقافي من الضياع لكونه قوام هويتهم، فقاموا بتدوينه بلغتهم الأسبانية المتداولة بين الشعب حينذاك مستخدمين الحروف العربية الباقية من ماضيهم الأندلسي لإخفاء المضامين الدينية الممنوعة عن محاكم التفتيش[٢].

وهناك من يعتقد أنهم استخدموا هذه الحروف لشعورهم بقداستها، فقد كانت كل ما تبقى لهم من لغة القرآن الكريم، وسمِّيت هذه اللغة «العجميَّة» (ALjamia) أو الألخميادية، وهي اللغة التي كان يتم تعليمها لأبناء هذه الفئة علناً بدلاً من العربية التي حُظر استعمالها وتداولها، وهو ما أشار إليه الحجري الذي عاش هذه المأساة واكتوى بنارها، إذ أنه أول ما تعلم اللغة العجمية بقوله: «جلست خمس سنين في تعلم القراءة العجميَّة»[٣].

ويبدو أنَّ تعليم العجميَّة وتداولها لم يقتصر على الأسر الموريسكية دون الأخرى، إنما كان سائداً لدى جميع الموريسكيين، إذ أن الظروف حتمت استعمالها لغة أساسية بعد أن تغيَّر وضعهم بشكل جذري في الممالك النصرانية، وظهرت بها مؤلفاتهم في مختلف العلوم الدينية والأدبية، بل إنهم

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ٥٠؛ فوك: تاريخ الاستشراق، ١٨.

(٢) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ٥٠٧؛ الهاجري: أوضاع المسلمين في بلنسية في عهد الملك الأراغوني خايسي الأول، ١٣٢.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ١٣٦.

ترجموا القرآن الكريم إلى هذه اللغة لصالح بني ملَّتهم الذين أنسوا لغتهم بسبب حظر استعمال اللغة العربية آنذاك(١).

ويروي لنا الحجري قصة الكتب الرصاصية التي وجدت في صومعة إحدى كنائس مدينة غرناطة، وكيف أنَّ هذه المؤلفات قد كتبت بلغة عجميَّة وكانت تحمل دلالات دينية تبين فيما بعد أنها كانت كلها من عمل الموريسكيين، الذين حاولوا تعزيز مكانة اللغة العربية كجزء من تاريخ الأندلس، وقد تناولت موضوعات هذه الكتب الأديان ومحاولة التوفيق بين الإسلام والنصرانية، فكتبت بثلاث لغات: العربية، والعجمية، والقشتالية، مما يعطي دلالة على سعة ثقافة مؤلفوها والذين رشح أنهم من الموريسكيين أنفسهم(٢).

وليس معنى هذا أنَّ اللغة العربية كانت بمنأى عن ثقافة الموريسكيين، فقد نقلوها وعلَّموها للأجيال المتعاقبة لهم رغم كل الصعاب والمخاطر المحفوفة لمن يتحدَّث أو يدوِّن بها، وهذا ما سقناه سابقاً من أنَّ الحجري تعلَّم قواعد اللغة العربية من ابن عمِّ والده الذي كان متقناً لها فلقَّنه دروسه في قواعدها حتى أجاد تعليمها قراءة وكتابة وكل ذلك حصل سراً حتى عن والديه(٣).

ولا ننسى أنَّ اللغة العربية كانت تمثِّل رمزاً من رموز التميُّز بين صفوف الموريسكيين، لذا فليس من المستغرب أن نجد بين هذه الصفوف من يجيدها، لا سيما إذا أخذنا في الاعتبار انتشار مذهب التقية بين هؤلاء الموريسكيين،

---

(١) إينالثا: الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ٤١، ٦٥، مانثاناريس: المستعربون الإسبان، ٣٣، بدوي: موسوعة المستشرقين، ٤١.

(٢) الحجري: ناصر الدين، ٥١-٥٢؛ هورتز وبنثت: تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون، ١٩١.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ١٣٦.

سواء في معرفة اللغة العربية أو علوم الدين الإسلامي وممارسة شعائره[١].

كما أنَّ العربية لم تكن محظورة في جميع المدن الأندلسية، حيثُ سُمح لأهل بلنسية باستخدامها، وهذا ما علله الحجري للنصارى عندما ارتابوا في أمر معرفته بالعربية عند ترجمته للكتب الرصاصية بقوله: «أعلم أيها السيد أنني أندلسي من البلد الفلاني، وكلامنا بالعربية فيه، ثم تعلمت نقرأ بالأعجمية، ثم مشيت إلى بلد فدريل بلد السلطان فوجدت هنالك رجلاً طبيباً أندلسياً من بلاد بلنسية اسمه فلان وعلَّمني نقرأ بالعربية»[٢].

ولم يقتصر الأمر في تعلم العربية على المخاطبة أو الكتابة فقط، بل إن ثقافة الموريسكيين اتسعت لتشمل معرفة مؤلفاتها في النحو واللغة والأدب، فقد ذكر الحجري أنه ومن كان معه من المترجمين للكتب الرصاصية قد احتاجوا إلى كتاب في اللغة والنحو لأجل الترجمة بقوله: «فاحتجنا كتاباً في اللغة إلى فهم ذلك فأعطاني الجوهري في سفرين بخط أندلسي قديم»[٣]. ومن المرجَّح أنه يقصد به معجم الصحاح لمؤلفه الجوهري المشهور[٤].

وإلى جانب علم اللغة نجد إشارات في رحلة الحجري على اطلاعه على كتب الأدب إذ أنه استشهد بأبيات من قصيدة البردة[٥] المشهورة وهي:

---

(١) مانثاناريس: المستعرب الأسباني، ١٥؛ خوان أراندا دونثيل: الموركيون في قرطبة، خصوصيات ثقافة لأقلية مهمَّشة، ط١، ترجمة صالح السنيدي، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤١٧هـ، ٥٣٢/٢.

(٢) الحجري: ناصر الدين، ٥٥.

(٣) نفس المصدر، ٥٦.

(٤) نفس المصدر والصفحة، هامش (٣).

(٥) قصيدة البردة، أو قصيدة البرأة، أو الكواكب الدرية في مدح خير البرية، أحد أشهر القصائد في مدح النبي ﷺ، كتبها محمد بن سعيد البوصيري في القرن السابع الهجري، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً، وقد قيل في سبب نظمه لها أنه أصيب بمرض فكان يكثر من الصلاة على الرسول ﷺ حتى رآه ذات ليلة في المنام وغطاه ببردته الشريفة، فبرأ من مرضه، وقد اشتملت بعض أبياتها على شرك بالله وكفر صريح وانتقده بها أهل العلم.

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم[١]

كما أنه أشار إلى رسائل لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي[٢] في مطلع حديثه في الرحلة[٣].

إلَّا أنَّ الأدب بشكل عام في هذا العصر كان مختلفاً للموريسكيين عن الأدب الأندلسي قبل ذلك، إذ أصبحت مواضيع أدب هذا العصر استجابة لظروف خاصة كانوا يرزحون تحتها، وهو الأدب الذي اتخذ من الحروف العربية وسيلة لكتابة اللغة الأعجمية أو الألخميادية، والذي كان شاهداً أميناً على المأساة التي نزلت بالموريسكيين وتفاصيل حياتهم اليومية في ظلها[٤].

ونستطيع تقدير مستوى الفصاحة لدى الموريسكيين برحلة الحجري ولغتها، إذ أنها لا تخلو من الركاكة اللغوية في مواضع عدَّة، كما أنها احتوت بعض الأخطاء والتعبيرات العامية، والصيغ المترجمة، وخضعت بعض الكلمات في كتابتها للنظام الصوتي الأسباني، وغيرها مما يشير إلى بعض مواطن الضعف العام في اللغة التي كتب بها الحجري وتكلَّم، وهو شيءٌ ملحوظ في كتاباته، حتى أنه قد أشار إليها المستشرق الهولندي إربنيوس وهو في بدايات تعلمه اللغة العربية، عندما وصف لغة الحجري قائلاً بأنَّ فيها أخطاء وأنها تخالف القواعد العربية[٥].

---

(١) البوصيري شرف الدين محمد: قصيدة البردة، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٤م، الحجري: ناصر الدين، ٦١.

(٢) ابن الخطيب: محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي الأندلسي، ولد بغرناطة سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، من عائلة بني الوزير المشهورة، وقتل بالسجن سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م. له عدة مؤلفات.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ٤٧.

(٤) الخطيب: أحمد بن قاسم، ١١٦.

(٥) نفس المرجع، ١٠٢.

وعلى الرغم مما اكتنف لغة الحجري وأسلوبه من عيوب نجد أنه يسعى لإبراز قدراته اللغوية ما أمكنه ذلك، فهو يصف نزوله عند سلطان مراكش وكيف أنه ألقى بحضرته خطبة انبهر منها الحاضرون والسلطان، حيث عبَّر عن دهشته بقوله: «كيف يكون من بلاد النصارى من الأندلس من يقول العربية مثل هذا الكلام لأنه كلام الفقهاء»(١).

وإذا جئنا إلى ما يخصُّ الجانب الديني وعلومه لدى الموريسكيين نجد أنَّه كان شيئاً أساسياً من حياتهم، وأنَّ معرفة وتعلُّم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف من صميم مناهجهم التي كانوا يقومون بتدريسها أو دراستها سراً، وهو ما لم تستطع السلطات النصرانية القضاء عليه ومحوه، إذ أنهم وجدوا أنفسهم أمام شعب موريسكي عنيد تجاه كل ما يخص ها الدين من أمور، فعرفوا حينئذ أنَّ التغيير أمر مستحيل، وكان قرار الطرد النهائي من البلاد.

وكما ذكرنا سابقاً فقد كان للموريسكيين أسلوب خاص لمواجهة التنصير يرتكز أساساً على مبدأ التقية، إذ يقول الحجري في هذا الصدد: «وكانوا يعبدون دينين دين النصارى جهراً ودين المسلمين في خفاء من الناس»(٢). وهكذا حافظ الموريسكيون وإلى اللحظة الأخيرة على دينهم وأداء شعائره حيث اتصفوا بالصبر والثبات وكانوا على ثقة دائماً بأن نصر الله قريب، مما جعلهم يرسخون أكثر للتمسك بالتوحيد الخالص وهو ما أوضحه الحجري بقوله: «ولتعلموا ما بين عبادة الكافرين وعبادة المسلمين، ولنشكر الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس، والجامع الطهر النقي من الأوثان والأدران، لأنها من أعظم النعم»(٣).

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ٧٨.

(٢) الحجري: ناصر الدين، ٤٨.

(٣) نفس المصدر.

ومن خلال حديث الحجري نجد أنَّ أول مناهج الدين الإسلامي تعلماً لدى الموريسكيين هو القرآن الكريم، إذ أنَّ الحجري نفسه كان يحفظ القرآن الكريم من الصغر، وهو ما لزم كل مسلم خاصة لأداء فريضة الصلاة، والتي لم يتوان الموريسكيون عن أدائها حتى في أوج أوقات القمع والتنكيل من قبل النصارى، كما أنهم صاموا شهر رمضان، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، ولا يتزوجون أو يزوجون بناتهم من النصارى، وفي هذا ذكر الحجري على لسان أحد محاوريه ما نصه: «ولكن أنتم أهل الأندلس فيكم عادة غير محمودة، قلت: وما هي؟ قال: إنكم لا تمشون إلا بعضكم مع بعض، ولا تعطون بناتكم النصارى القدام، ولا تتزوجون من النصرانيات القدام»(١).

وعلى كلٍّ فنحن نجد أنفسنا من خلال رحلة الحجري أمام نوعين من الثقافة الدينية لدى الموريسكيين هما: ثقافة دينية صحيحة، وبمعنى آخر الدين الإسلامي الصحيح الذي كان قائماً على الكتاب والسنة وكتب الفقه الإسلامي والعلوم الإسلامية الأخرى التي لم تشبها أي خرافات أو بدع أو حركات صوفية كما هو متعارف لدى البعض.

وقد ساق لنا الحجري عدداً من الأمثلة على هذا النوع من الثقافة الدينية، كمعرفته بأحاديث الصحيحين والاستشهاد بها في مناظراته مع أصحاب الأديان الأخرى في مختلف البلدان التي زارها(٢)، إضافة إلى إشارته إلى عدد من علماء الفقه الذين كانوا مرجعاً مهماً للموريسكيين، ومدى افتخاره بهم لا سيما علماء المذهب المالكي والذي كان منتشراً في بلاد الأندلس والشمال الأفريقي آنذاك(٣).

---

(١) نفسه، ٦٧.

(٢) نفسه: ص٨٠، ٨١، ٨٨، ٩٩، ١١٢.

(٣) نفسه، ص٤٧، ٦٣، ٨٠.

ومن بين هؤلاء العلماء الفقيه محمد عبدالرفيع المرسي الأندلسي (ت ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م)، وهو أحد الموريسكيين المولودين بجهة مرسية في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وقد خرج من الأندلس رفقة عائلته إلى تونس حدود سنة (١٠١٣-١٠١٤هـ /١٦٠٤-١٦٠٥م)، وقد التقى به الحجري بتونس وأخذ عنه(١).

إضافة إلى ذلك فقد كان الحجري مطلعاً على كتب التفسير لمعرفة معاني الآيات الكريمة والتي ساق منها شواهد في حديثه من خلال مؤلفه(٢)، وما ترجمته لكتاب الشفا للقاضي عياض إلا دليلاً على اهتمام الموريسكيين بشكل عام بالسنة النبوية وسيرة المصطفى ﷺ، وقد هدف من هذه الترجمة اطلاع إخوانه الموريسكيين عليه، وزودهم به بعد خروجهم من أسبانيا واستقرارهم بتونس، ولا بد أنهم انتفعوا بهذه الترجمة التي وظفوها في تجاوز آثار النصرانية فيهم، وتخلصهم النهائي منها(٣).

أمَّا فيما يخصُّ الثقافة الدينية التي اختلطت بالبدع والخرافات والتصوف، فإنَّنا نلاحظها واضحة في كتابة الحجري، ويبدو أيضاً أنَّ هذا النوع من الثقافة كان منتشراً بين أوساط الموريسكيين ؛ ولعلَّ السبب في ذلك هو الضغط النصراني ضدَّهم، فمنع ممارسة الشعائر الدينية واستعمال اللغة العربية جعل هؤلاء الموريسكيين يتحرَّكون في خفاء، الأمر الذي أثَّر بدوره على الثقافة الدينية الصحيحة، فبدأت تتغلغل إليها البدع والخرافات مراقبة أو توجيه، كما أنَّ اليأس لدى البعض من هذه الحياة الدنيا ومآسيها جعلهم يسكنون إلى أحاديث الزهد والتعبد والتفكير بالآخرة، وقد وجدوا بغيتهم في مذهب التصوف الذي

(١) نفسه، ص٦٣، هامش (٢).
(٢) نفسه، ٨٥، ٨٨، ٩٠، ٩٩، ١١٢، ١١٣ وغيرها.
(٣) نفسه، ١٥٢، عبدالرزاق: قراءة في كتاب ناصر الدين، ١٢.

يدعوهم إلى ذلك مع الغلو الذي كان يحوي كثيراً من مؤلفاته، ويعتنقه بعض رجاله(١).

ونتيجة ضعف كفة هؤلاء الموريسكيين، فلا يستبعد مشاركة غير المسلمين في وضع أوراد تهدف أساساً إلى تقويض أركان الإسلام في الأندلس، وما الكتب الرصاصية التي ذكرها الحجري وشارك في ترجمتها إلا مثالاً واضحاً على ذلك، فمن خلال حديثه عنها تبين أنها كانت تحوي أحاديث موضوعة عن آخر الزمان، وبشارة بظهور النبي ﷺ وتنبؤات أخرى ذكرها في ثنايا كتابه، إضافة إلى الدعوة إلى وحدة الأديان(٢).

وهذه الكتب وإن نسبت إلى أنها مخطوطات قديمة فقد بيَّنت الدراسات أنَّها قد أُلِّفت في نفس الحقبة التي عاش فيها الحجري، وأنَّ مؤلفوها على الأغلب من المسلمين المنصَّرين، أو ممن اعتنق النصرانية لأنها توحي بثقافة كاتبها بالدين الإسلامي والنصراني على حدٍّ سواء(٣).

إنَّ في ممارسة بعض الموريسكيين للتصوف واعتقادهم ببعض البدع والخرافات جاء نتيجة تجاوز تنصيرهم القسري إذ أنَّ السلطات النصرانية قد تمكَّنت من إحداث بعض الثغرات في هويتهم الإسلامية، بدفعهم إلى التخلي عنها، فشرعوا ليس في التشبث بها فحسب، بل في إعادة تأسيسها وترميم تلك الثغرات، وتجاوز هذه الرقة(٤).

ومما فعلوه لأجل ذلك أنهم أكثروا من التأليف في أسماء الله الحسنى تعبيراً منهم عن الواردات الروحية التي كان يتركها فيهم تعبُّدهم بهذه الأسماء

---

(١) حنيفي هلايلي: التراث الديني عند المويسكيين من خلال المخطوطات الألخمياديـة، مجلة جامعة الأمير عبدالقادر، عدد٢٢، رمضان ١٤٢٧هـ، ص٢٢٢.

(٢) نفس المرجع.

(٣) الحجري: ناصر الدين، ١٥٢.

(٤) هلايلي: التراث الديني، ٢٢٣.

وتخلقهم بمعرفتها وإنشادها، فها هو الحجري يروي لنا بركة دعاء يحوي أسماء الله الحسنى كان والديه قد علماه إياه ليكون له حرزاً، وقد أفاد منه كثيراً، كما أنه ذكر اطلاعه على مجموعة من مؤلفات شيوخه في هذا المجال كالشيخ الإمام عبدالله اليافعي الذي قرأ له ما نصُّه: «إنَّ لكلِّ داعٍ يدعو الله تعالى اسماً، هو بالنسبة إليه أعظم الأسماء، بحسب حال من يدعو وعلى وفق السؤال، والمطلوب بالدعاء»(١).

ثم قال الحجري: «وهذا القول قريب من المعنى وهو قول جمهور مشايخنا الصوفية، وسالكي طريق التحقيق والعرفان»(٢)، ثم أخذ يسوق أحاديث كثيرة عن جملة من علماء التصوف كمحب الدين الطبري، ومحيي الدين ابن العربي الذي حدَّثه بحديثه بعض أصحابه(٣)، وفي المقابل فقد كان يستشهد بكلام من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي في حديثه(٤).

وقد ذكر الحجري أنَّ من جملة العلوم التي تعلَّمها التنجيم الذي يسميه علم الأحكام أو علم أحكام النجوم وقرأ هذا العلم على الفقيه أحمد المعيوف الفاسي الأندلسي (ت١٠٢٢هـ /١٦١٣م)(٥)، وكانت له من الكتب في هذا الفن شيءٌ كثير(٦)، وفي مجال المناظرات والمجادلات الدينية صورت لنا رحلة الحجري نمطاً فريداً من هذا النوع من المناظرات رفيعة المستوى، والتي كانت كفة

(١) الحجري: ناصر الدين، ١٤٢.
(٢) نفسه، ١٤٣.
(٣) الحجري: ناصر الدين، ١٤٣.
(٤) نفسه، ٥٦.
(٥) انظر لترجمته: محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، دار المغرب، الرباط، ١٩٧٦م، ص٣٩٣.
(٦) الحجري: ناصر الدين، ١١٥.

الجانب الإسلامي فيها راجحة على الأغلب مما يعطي دلالة على قوة حجَّتهم وصحَّة الأدلة لديهم وغزارة المعرفة والاطلاع في سياق الأدلة والاستشهاد بها، ولعل السبب في ذلك هو طبيعة الثقافة الدينية لدى الموريسكيين في الأندلس، أي قبل قرار الطرد، والتي فرضت عليهم التنصير القسري ومعرفة الكتاب المقدَّس وشعائر النصرانية كلها منذ الصغر، الأمر الذي ساعد في نبوغ أكثرهم في علم مقارنة الأديان لأنهم كانوا قد أخذوا من كل دين قواعده وشعائره، حتى اليهودية فإنهم جاوروا أصحاب هذه الديانة، وهاجروا سوياً معهم بعد قرار الطرد، فكانوا يعرفون بعض طقوسهم وأحوالهم، وإذا أضفنا إلى ذلك كله التعدد اللغوي الذي كان يحظى به الموريسكيون لعرفنا سبب قوة حجاجهم، وسطوة مقارعتهم لأصحاب الملل الأخرى سواءً علماء الأديان أو عامَّة الشعب(١).

وإذا أضفنا إلى هذا كله ما ذكره أحد الباحثين بقوله: «هذا الرواج لموضوع الجدل الديني في أوساط الموريسكيين دفع الباحثين للنظر في أسبابه، فذهب البعض إلى أنَّ هؤلاء الموريسكيين قد تأثَّروا ولو بشكل نسبي بالنزعة الفلسفية التي ظهرت في أوروبا، والجدل الدائر بين البروتستانت(٢) والكاثوليك(٣)، في حين ذهب آخرون إلى القول أن التأليف في موضوع «دم الكفار» ومجادلتهم

(١) حسام الدين شاشية: الجدل الديني من خلال كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، ط١، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٥م، ص٥.

(٢) البروتستانت: اسم يطلق على مئات الطوائف والفرق النصرانية، وهي وليدة حركة الإصلاح الديني المعروف في أوروبا. الموسوعة العربية العالمية، ٣٧٦/٤.

(٣) الكاثوليك: أكبر الكنائس النصرانية العالمية، مؤسسها بطرس، وسميت بالكنيسة الغربية. الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة، ط٣، ١٤١٨هـ، دار الندوة العالمية، ٦١٠/٢.

لا يستغرب من قبل الموريسكيين الذين أذاقهم الأسبان المسيحيين أقسى أنواع العذاب، بل أخرجوهم من بلادهم، فأمام عدم إمكانية الرد عليهم مادياً أي عسكرياً، فإن المجال الفكري يصبح الملاذ وساحة المعركة التي وإن لم تغير شيئاً على أرض الواقع فإنها كانت المتنفس الوحيد و«الزفرة» الأخيرة التي تعبِّر الغبن الشديد لهؤلاء المهجَّرين»(١).

وقد ذكر الحجري في رحلته ما يقرب من سبعٍ وعشرين مناظرة، تناولت موضوعات متفرقة في مدن بلدان كثيرة من التي زارها كفرنسا وهولندا وغيرها، وهذه الموضوعات متصلة بمسائل تتعلق بالإسلام كتحريم الخمر، وتعدد الزوجات، والربا، والشذوذ، والطهارة، وتحريم التصوير (التماثيل والأصنام)، والجنة ونعيمها في التصور الإسلامي، كما أنها تناولت مسائل تتعلق بالنصرانية كألوهيَّة المسيح عليه السلام أو طبيعته، أو التثليث، وذكر النبي ﷺ في الإنجيل، وتحريف الكتاب المقدَّس(٢).

وقد استعان الحجري في مناظراته مع النصارى بالإنجيل، وهذا ما أشار إليه بقوله: «واحتجت أقرأ الإنجيل الذي بأيديهم الآن، ومنه ومن غيره من كتبهم وجدت ما ترد عليهم وتبطل جحادهم، ونصرني الله عليهم مراراً عديدة»(٣).

كما أنه كثيراً ما استشهد بآيات القرآن العظيم، والأحاديث النبوية لدحض حججهم(٤).

---

(١) شاشية: الجدل الديني، ص٢٣-٢٤.

(٢) الحجري: ناصر الدين في مواضع متفرقة.

(٣) المصدر نفسه، ٤٦.

(٤) المصدر نفسه في مواضع متفرقة كما سبق ذكره.

وإذا كانت مناظرات الحجري مع النصارى قد حازت الجزء الأكبر في رحلته، فإن موضوع مناظراته مع اليهود قد احتلت مكانة هامة فيها، تظهر في عدد المؤلفات التي استعان بها لأجل ذلك، منها ردود ابن حزم في الرسالة المعنونة ب«الرد على ابن النغريلة اليهودي»، أو المحور الهام الذي خصصه لديانة اليهودية في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، كذلك كتاب «الحسام المحدود في الرد على أخبار اليهود»، لأبي محمد عبدالحق الإسلامي، وهو الكتاب الذي أحال إليه الحجري في أكثر من مرة، وغيرها من الكتب الأخرى التي ذكرها في حديثه عن مناظراته مع هذه الطائفة(١).

وإذا كان الحجري لم يخصص في مناظراته مع اليهود إلا الباب العاشر في كتابه، فإنه يعكس جانبية هذا الموضوع لديه، وهو ما صرح به في مقدمة الكتاب بقوله: «وإن كان لي وقت قبل الرحيل نكتب من الرحلة ما وقع لي أيضاً مع علماء اليهود بالبلاد المذكورة»(٢)، ورغم جانبية هذه المناظرات فإنها على ما يبدو كانت إلى حدٍّ ما أكثر مشقة على الحجري من مناظراته مع النصارى، الذين ارتكز فيها على معارفه الواسعة بالدين المسيحي، نظراً لكونه نصرانياً سابقاً، عاش فترة هامة من حياته وسط مجتمع نصراني، وبالتالي تعرف من خلال المعاينة والممارسة على تفاصيل هذا الدين إلا أنه في مناظراته مع اليهود وجد نفسه مضطراً للتعرف على دينهم أكثر مما جعله يقرأ التوراة حيث قال: «قرأت التوراة التي هي أربع وعشرون كتاباً، الخمسة الأوائل في الديانات، والباقي من الكتب في التاريخ، وجدتها مترجمة من العبراني إلى العجمي الذي نعرفه»(٣).

---

(١) الحجري: ناصر الدين، ، ص١٠٧ وما بعدها.

(٢) الحجري: ناصر الدين، ٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٨.

وإذا ما انتهينا من الجانب الديني لثقافة الموريسكيين من هذه الرحلة الشيقة فإنه من المستحسن أن نعطي صورة أخرى من جوانب ثقافة الموريسكيين في بقية العلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا والطب والفيزياء وغيرها مما أشار إليه الحجري ودلَّ دلالة واضحة أن هؤلاء الموريسكيين كانوا على ثقافة به.

ففيما يخصُّ علم التاريخ نجد أن الحجري أشار إلى مؤلفات قيمة كانت بين يدي الموريسكيين سواءً وهم في الأندلس أو بعد الهجرة منها ككتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، لمؤلفه أبي العباس أحمد بن محمد المقري (ت ١٠٤١هـ /١٦٣١م)، حيث استقى منه الحجري كلاماً عن الجهاد، واستشهد بحديث المقري عن المنصور ابن أبي عامر في غزواته ضد النصارى، وقد ذكر الحجري هذه الاستشهادات كلها خلال حديثه عن ترجمته لكتاب «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، الذي ترجمه من الكتاب العجمي إلى العربية كما ذكر هو بنفسه(١).

ومما رجع إليه الحجري أيضاً وكان مما اطلع عليه في علم التاريخ، تاريخ العلامة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، وهو الموسوم بـ(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)، وبين الحجري خلال استشهاده بكتابه مدى مكانة ابن خلدون لدى أهل الأندلس بقوله: «وهو كاتب محترم جداً بين علماء شريعتنا»(٢).

ويشير الحجري أيضاً إلى أحد علماء التاريخ من معاصريه الموريسكيين، وهو محمد بن عبدالرفيع الأندلسي السالف الذكر، والذي على ما يبدو أنه كان له باع طويل في التأليف في مجال السيرة النبوية، إذ أنه ألف فيها كتاب

(١) الحجري: ناصر الدين، ١٩٢، ملحق (٣).
(٢) الحجري: ناصر الدين، ١٦٥.

الأنوار النبوية في إباء خير البرية، وقد أخذ عنه الحجري أسماء النبي ﷺ عندما قابله في تونس(١).

وفي علم الجغرافيا أشار الحجري إلى مؤلفين قيمين في هذا العلم هما كتاب: «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، لأبي الحسن المسعودي، والذي أشار إليه من خلال رسالته للمستشرق ياكوب فوليوس، وكتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، للإدريسي، الذي ذكر أنه اطلع عليه بمدينة غرناطة، وحمله معه إلى بعض من جاء من أهل ملته إلى هذه المدينة يتدارسوا ما فيه(٢).

ومن جانب آخر فإنَّ ثقافة الحجري في مجال الجغرافيا تظهر واضحة في تقديمه معلومات جغرافية وأوصاف للبلدان التي زارها في رحلته، فهو يقول عند حديثه عن مدينة باريس الفرنسية: «هي دار سلطنة الفرنج، وبينها وبين مدينة روان نحو الثلاثة أيام، طولها خمسة آلاف خطوة وخمسمائة، وعرضها أربعة آلاف وخمسمائة خطوة، وبيوتها عالية أكثرها أربعة طبقات وأكثر وأقل، وكلها عامرة من الناس وديار الأكابر مبنية بالحجر المنجور»(٣)، وكان هذا ديدنه في كل بلد أو مدينة يتكلَّم عنها إذ يبدؤها بوصف جغرافي دقيق يذكر ما جرى له بها ومع من اتصل فيها(٤).

ومما يدل على سعة ثقافة الحجري في علم الجغرافيا أن السلطان المغربي طلب منه أن يترجم للعربية كتاباً عظيماً في الجغرافيا، فيه تصوير كل بلدان الدنيا(٥)، كذلك تظهر ثقافته في اطلاعه على الفن الجديد الآخذ في الاتساع آنذاك

(١) الحجري: ناصر الدين، ٦٣.
(٢) الحجري: ناصر الدين، ص١٧٢، ص١٧٧، ملحق (٢).
(٣) الحجري: ناصر الدين، ص٨٣.
(٤) نفسه، ٩١، ١١٥.
(٥) نفسه، ١٤٠.

وهو رسم الخرائط، المبَّات (Mapa)، وعليها تصوير المدن والأماكن[١].

كما يحدثنا الحجري أنه قرأ كتاباً عن رحلة حول العالم قام بها رحالة اسمه بدرو طشابر[٢]، وفي رسالته الطويلة إلى الموريسكيين في اسطنبول يقتبس شيئاً من كتاب مارمول الأسباني حول أفريقية[٣] ولهذا نجد معلومات الحجري حديثة بالنسبة إلى غيره من المؤلفين المعاصرين، فهو مثلاً يذكر أنَّ تدريج خطوط الطول يبدأ من الجزر الخالدات، أي (جزر الكناري)، وفي مواضع أخرى يذكر ما وصل إليه من معلومات عن العالم الجديد، وهو يقول: «الدنيا الجديدة التي ظهرت بعد ذلك بالمغرب البعيد، حيث هي الهنود المغربية التي لم يدخلها الإسلام، وجميع سكانها القدماء مجوس، يعبدون الشمس لكفرهم إلى أن أدخل فيهم سلطان بلاد الأندلس أصنامه وشركه»[٤].

وفي أكثر من موضع يتحدَّث عن أرخبيل الملايو، وذلك لأنه قاتل الهولنديين في المغرب وهولندا وكانت دولتهم تحتلُّ تلك الجزر[٥].

وفي موضع آخر يتحدَّث عن رأس الرجاء الصالح وأنَّ القارة الأفريقية يصغر عرضها إلى أن يصبح مثل ركن تلتف السفينة حوله فيقول: «ويمتد هذا الربع الأفريقي إلى طرف رأس الرجاء الذي هو سبعٌ وثلاثون درجة إلى الجنوب من خط الاستواء. ويضيق للأرض من الجانبين إلى أن يكون كركن، والبحر المحيط دائر به»[٦].

---

(١) الخطيب: أحمد بن قاسم، ص١١١.
(٢) الحجري: ناصر الدين، ١٥٧، ملحق (١).
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) الحجري: ناصر الدين، نسخة رزوق، ص(١١٠).
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) نفس المصدر والصفحة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الحجري ذكر في رحلته مدى سعة ثقافة الموريسكيين بالطب وعلومه فهو يشير في مواضع عدَّة إلى الأكيحل الأندلسي سالف الذكر، والذي كان من بين الأطباء المشهورين آنذاك، إضافة إلى سعة معلومات الحجري نفسه بالطب، ويظهر ذلك واضحاً في حديثه عن كتب الطب بقوله: «قال بقراط وجالينوس وابن سينا وجميع الأطباء متفقون معهم أن لحفظ الصحة ينبغي أن يأكل الإنسان في نصف النهار أكثر مما يأكل في الليل»(١).

وقد قام الحجري بترميم مخطوط (المستعيني في الطب) للطبيب اليهودي يونس بن إسحاق بن بكلارش، وكانت بعض أوراقه مهترئة فأعاد كتابتها، وضمَّ الأوراق الجديدة إلى القديمة، والصفحات التي كتبها بخط يده عليها تعليقات مفيدة بالأسبانية، والكتاب بالعربية إلا أنه يحوي على ثروة من الألفاظ الأسبانية، وقد أصبح مصدراً لمؤلفي المعاجم من المستشرقين، وقام الحجري بإهدائه إلى صديقه المستشرق الهولندي خوليوس(٢).

أمَّا إذا أتينا إلى العلوم الطبيعية كالفلك والفيزياء والكيمياء وغيرها فقد وردت إشارات عدَّة في رحلة الحجري إليها، كتعريبه «للرسالة الزكوطية»، وهي رسالة في الفلك والتنجيم ألَّفها اليهودي إبراهيم بن السموأل في أسبانيا نفسها، ثمَّ عرَّبها الحجري بمساعدة راهب أسير عند الملك زيدان بمراكش(٣).

وقد أورد الحجري اسم فلكي موريسكي اشتهر بعلم الفيزياء وألَّف فيه كتاباً مهماً وهو: «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» الذي ألَّفه إبراهيم

(١) الحجري: ناصر الدين، ص٨٥.
(٢) الخطيب: أحمد بن قاسم، ص٨٩.
(٣) الحجري: ناصر الدين، ٢٣.

بن أحمد بن غانم الأندلسي الملقَّب بالرياش (ت بعد /١٦٤٠م)، وجاء ذكره في رحلة الحجري عندما ذكر أنَّه ترجم كتابه السالف الذكر بطلب منه كما يقول: «.. من اللسان العجمي إلى العربية»[١].

ويعتبر الرياش أو الريس كما اشتهر به بعد هجرته إلى تونس من أعلام الموريسكيين حيث ولد بمدينة نولش بإقليم غرناطة، والتي انتقل منها على ما يبدو في سن الطفولة بعد ثورة البشرات في حدود سنة (/١٥٧١هـ) إلى ضواحي مدينة غرناطة إلى أن أمر الملك فيليب الثاني الغرناطيين الذين تأخَّروا عن الخروج الأول بالارتحال إلى خارج مملكة غرناطة، لتختار عائلته الاستقرار بمدينة أشبيلية[٢].

وفي هذه المدينة يؤكِّد إبراهيم أنَّه قد تولَّع بالسَّفر في البحر المحيط، أي أصبح من بحَّارة السُّفن التي كانت تجوب العالم الجديد، وهي المهنة التي تمكَّن من خلالها التعرُّف على تقنيات المدفعيَّة والبارود، وقد وقع في السجن لاكتشاف أمر إسلامه أو كونه موريسكياً، ولكنه خرج من السجن بواسطة أصدقاء له، ثمَّ غادر إلى تونس حيث أصبح قائد أسطول يغزو بلاد الأسبان، ولكنَّه ما لبث أن أسر وسجن لمدة سبع سنوات، عاد بعدها إلى تونس، وتولى قلعة حلق الواد التونسية، لخبرته في المدفعيَّة، وفي عام (/١٦٣١هـ) ألَّف كتابه السالف الذِّكر، وقد خطَّه بالأسبانيَّة التي لم يكن يجيد القراءة والكتابة بغيرها، وقد نسخه ابن الحجري المسمى محمد خوجه الأندلسي، وقام والده بترجمته[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٠.
(٢) نفسه، ص١٨١.
(٣) نفسه، ص١٨٤.

ويقوم الكتاب على مقدِّمة وخمسين باباً تتعلَّق بموضوع صناعة المـــدافع، مرفقة بمجموعة من الرسوم التوضيحيَّة، أمَّا الدافع لتأليف هذا العمل، فهو كما يقول مؤلِّفه، ما لاحظه من تأخر عند المسلمين في مستوى استعمال المـــدافع، حيث أمِل وهو بصدد التأليف أن يجد من يعربه له، كي يرسل منه نسخاً لبلاد المسلمين وهو ما تحقَّق بالفعل من خلال الترجمة التي قام بها الحجري، وجود نسخ من المخطوط في تونس، والجزائر، والمغرب[1].

وهكذا نجد من خلال هذا المؤلف مدى مبلغ علم الموريسكيين بهذا الفـــن، وسبقهم لغيرهم في مواضع عدَّة منه.

(١) نفسه، ص١٨٥.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

اشتملت هذه الدراسة على معلومات شيِّقة من خلال مختصر رحلة الحجري الموسومة بـ«ناصر الدين على القوم الكافرين»، وقد خرجت الدراسة بعدَّة نتائج، منها:

١ – أنَّ رحلة الحجري المعروفة بـ«رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباء»، والتي اختصرها في كتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين»، كانت ذات أهميَّة تاريخية لفترة زمنيَّة حرجة بالنسبة لتاريخ مسلمي الأندلس وحياتهم داخل وخارج المنفى.

٢ – أعطت هذه الرحلة تصوراً مهماً عن حياة الموريسكيين في كافة جوانبها، كما أنَّها وقفت على الجانب الثقافي والعلمي وصوَّرته من خلال صاحب الرحلة نفسه أولاً الذي كان يحمل ثقافة عالية لعدَّة علوم، ومن ثم إيراده للجوانب العلمية في مجتمع هذه الفئة أينما حلَّت.

٣ – كانت هجرة الموريسكيين إلى بلدان عدَّة، كما أنَّها أدَّت دور وتغيير في البلدان التي حلُّوا بها بحسب ما جاء في رحلة الحجري.

٤ – أوضحت الدراسة أنَّ الموريسكيون كانوا يحملون روحاً عالية، وقوَّة في التمسك بالإسلام على الأغلب، ومكافحة في الاعتزاز بالثقافة الإسلاميَّة أينما حلُّوا.

٥ – أثَّرت الجاليات الموريسكية بثقافتها في البلدان التي هاجرت إليها كالشمال الأفريقي والدول الأوروبية، بل يمكن اعتبار الموريسكيين همزة وصل بين الثقافة الإسلامية ووصولها إلى عالم الغرب عن طريقهم.

٦ – أعطت الرحلة تصوراً إيجابياً عن الموريسكيين، وبيَّنت أنهم لم يكونوا

متقوقعين على أنفسهم رغم كل الصعاب، بل إنهم تعايشوا مع وضعهم داخل أسبانيا أولاً، ثم في هجراتهم وتفاعلهم مع العالم الخارجي بعد ذلك، فكانوا عنصراً فعالاً ومؤثراً في المناطق التي هاجروا إليها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الملاحق

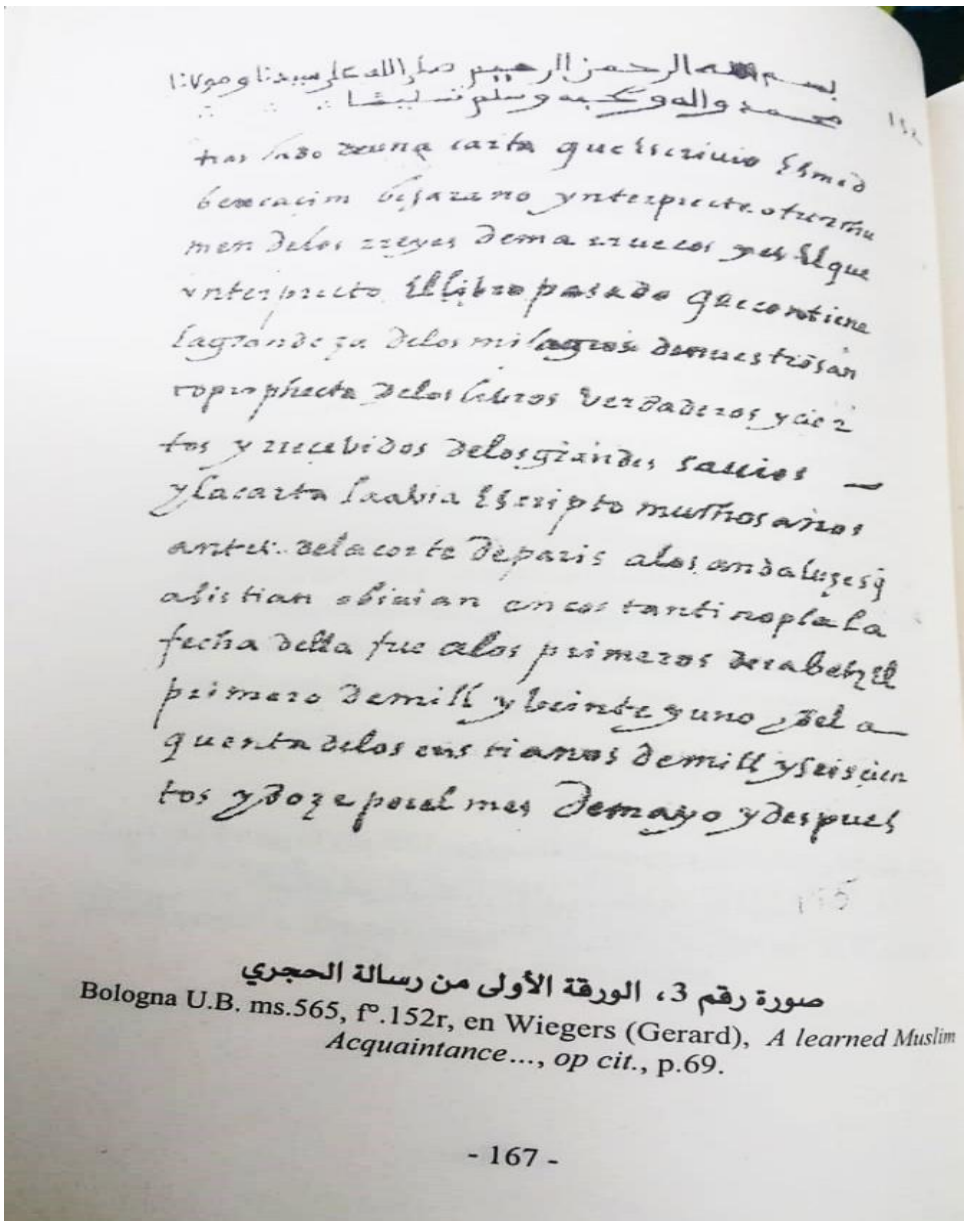

صورة رقم 3، الورقة الأولى من رسالة الحجري

Bologna U.B. ms.565, f°.152r, en Wiegers (Gerard), *A learned Muslim Acquaintance...*, *op cit.*, p.69.

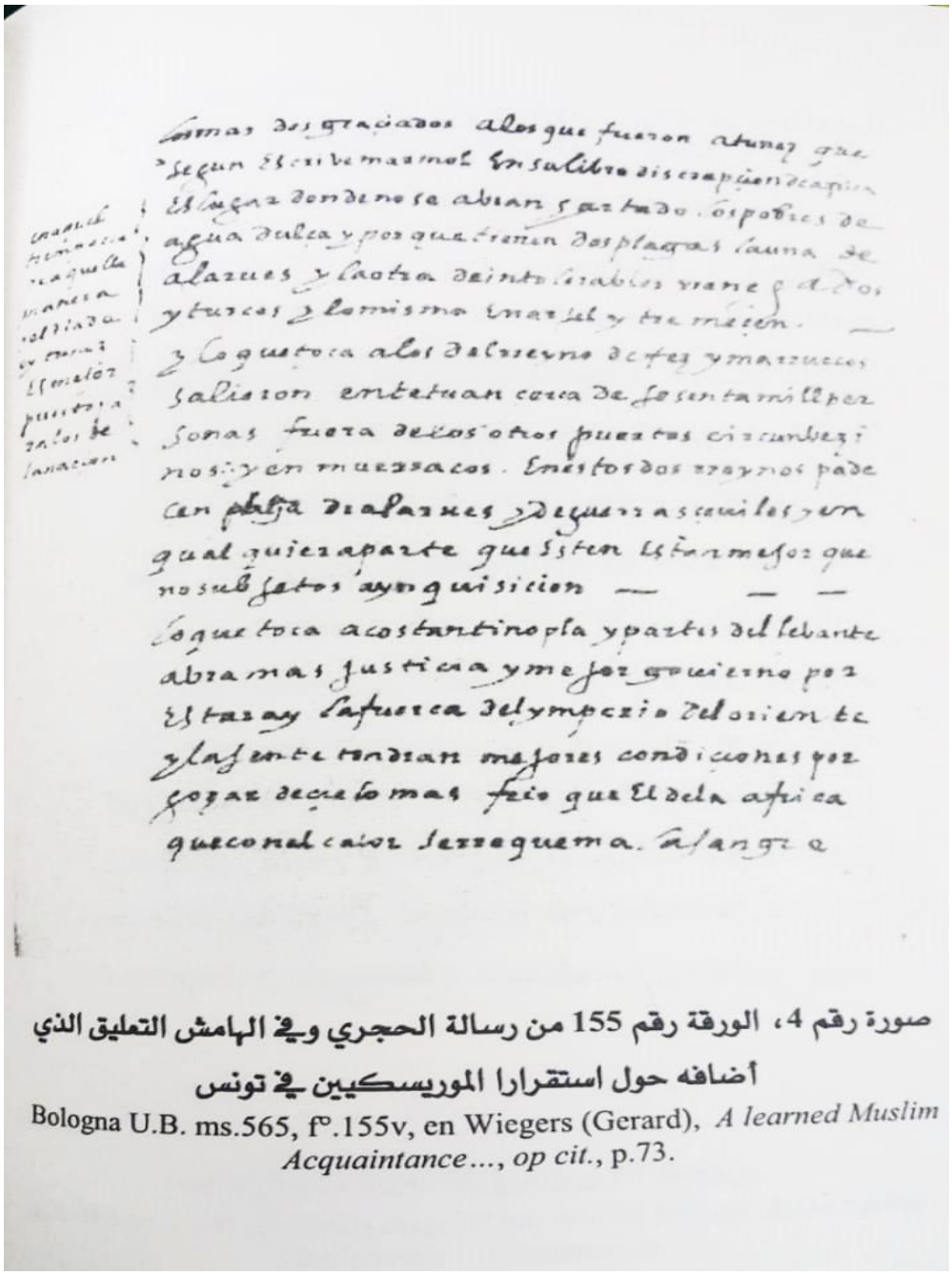

صورة رقم 4، الورقة رقم 155 من رسالة الحجري وفي الهامش التعليق الذي أضافه حول استقرارا الموريسكيين في تونس

Bologna U.B. ms.565, fº.155v, en Wiegers (Gerard), *A learned Muslim Acquaintance..., op cit.*, p.73.